@ketab_n
Follow Me
19.9.2015

بروست
فرعون الزمن الضائع!

د. ميشائيل مار

ترجمة : موسى ربابعة

بروست

فرعون الزمن الضائع!

دكتور ميشائيل مار

ترجمة: موسى ربابعة

مراجعة: مصطفى السليمان

كلمة
KALIMA

JOHANNES GUTENBERG UNIVERSITÄT MAINZ

Twitter: @ketab_n

© هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، المجمع الثقافي
فهرسة دار الكتب الوطنية أثناء النشر
بروست: فرعون الزمن الضائع!
ميشائيل مار

الطبعة الأولى 1430 هـ 2009 م
© حقوق الطبع محفوظة
هيئة أبوظبي للثقافة والتراث (كلمة)

PQ2631.R63, M3312 2009
Maar, Michael
[Proust Pharao]
بروست: فرعون الزمن الضائع/ تأليف ميشائيل مار؛ ترجمة موسى ربابعة. - ط.1. -
أبوظبي: هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، كلمة، 2009 .
76 ص: 21x14 سم.
ترجمة كتاب: Proust Pharao
تدمك: 978-9948-01-429-4
1 - Proust, Marcel,1871-1922l.
2 - الأدب الفرنسي - العصر الحديث - تاريخ ونقد.
أ. ربابعة، موسى. ب. العنوان.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الألماني:
Michael Maar, Prust Pharao
© 2009 Copyright Berenberg Verlag, Berlin

info@kalima.ae كلمة
www.kalima.ae KALIMA
ص.ب: 2380 أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 468 6314 2 971+ ، فاكس: 462 6314 2 971+

www.fask.uni-mainz.de JOHANNES GUTENBERG UNIVERSITÄT MAINZ

Johannes Gutenberg-Universität Mainz, Fachbereich Translations-, Sprach- und Kulturwissenschaft, An der Hochschule 2, 76726 Germersheim, Postfach 11 50, 76711 Germersheim. Telefon: 07274-508-0, Fax: 07274-50835-429

إن هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث (كلمة) غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره وإنما تعبّر آراء الكتاب عن مؤلفها.

حقوق الترجمة العربية محفوظة لكلمة
يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها دون إذن خطي من الناشر.

Twitter: @ketab_n

فهرس

بروست فرعون.....5

زوجة بوتيفار.....13

من الذي توفي أولا بالنسبة لألبرتين؟.....21

وصيفة مدام بوتباس.....31

سيلسته.....41

أحلام الداتورة والموت.....51

الهليون مع التشققات.....63

Twitter: @ketab_n

بروست فرعون

قبل أربع سنوات من موت المريض المنطوي على نفسه أقنعه صديق لكي يذهب إلى العرافة ذائعة الصيت مدام دي ثيبس، وهذه العرافة الباريسية التي تخلت عن مصير الأمراء والنبلاء، ألقت نظرة قصيرة على وجه الزائر وغامرت لتبدأ بالمراسيم «ماذا تنتظر مني أيها السيد؟ الأمر متروك لكم لتميط سيادتكم اللثام عن نفسي؟!».

لم تعرف العرافة إطلاقا إذا كانت محقة، فالرجل الشاحب اللون الذي عرفت فيه ذاك معلمها، فقد كان مبدع رواية بحثا عن الزمن الضائع، وإن حال قرائه حال مدام دي ثيبس، إذ لم يمض وقت طويل حتى يلاحظ: أن المرء لا يستطيع أن يحمي نفسه أمام هذا الساحر من التنبؤات، فالسيد ذو العينين البراقتين أكثر ذكاء منا، فحتى نؤول سطرا من البحث عن الزمن الضائع، فإنه يكون قد تنبأ لنا عشرات المرات.

لقد استقصى مارسيل بروست الحقيقة الداخلية حتى النهاية. إن هذه الحقيقة لم تكن خاصة، فقد رأى بروست عمله بوصفه عدسة مكبرة يستطيع كل قارئ أن يفهم ذاته من خلالها. وفي موضع آخر تحدث من خلال تيلسكوب، فكليبر الثاني بحث مسارات الكواكب الداخلية، وإن القوانين التي كشف عنها تصلح لنا كلنا – آلية الحزن والحب والغيرة وخداع الذات والنفاق وعادة النسيان والرغبة، ونحن نعرف جميعا سعادة الذكرى العفوية، التي يبرز فيها الزمن

Twitter: @ketab_n

خاصيته بوصفه وهما.

لم يصل أي عراف إلى الكشف عن أثر هذا الكتاب، إذ لا يوجد كتاب آخر بمثل هذا المزيج المضطرب يخلص القارئ من مشاعر: البهجة والفخر والتحطيم بلطف والاستسلام للأقدار بعمق. هل سيقرأ المرء مثل هذا ثانية، حتى وإن بدأ القراءة في الحال للمرة الثانية؟ إن هذا غير ممكن. إذ إن الخدعة التي لا يمكن أن تكرر تكمن في السقوط الحقيقي للحجاب.

ما الذي جعل هذا الأديب المولود عام 1871 متميزا، إنه الذي شهد التباشير الأولى للشهرة العالمية المستمرة، وتوفي عن واحد وخمسين عاما مثل بلزاك؟ لقد استطاع أن يظهر في صورة للبندقية مع مقطع جانبي مثل شارلي شابلن ونيتشه اللذين اكتسب منهما شيئا ما، وجمع بروست بين أشياء قلما تجتمع معا، إذ هنالك بروست الشعري الذي وصف بالآف الصور الزعرور اليانع أو المزيج اللوني لأمواج هائجة تتكسر على الشواطئ النورماندية.وهناك الممثل الكوميدي الاجتماعي ذو السمع المطلق، وهناك مقلد الأصوات الذي نال الشهرة الأولى من خلال المحاكاة الساخرة التي أراد من خلالها أن يمارس أسلوب النماذج التي تحتذى.

وإن الذي يشعر أن لا قبل له بوصف طقوس العربدة، فإنه يقفز إلى كومبريه الجزء المتعلق بالطفولة، ويبدأ مباشرة مع حب سوان، بحيث تنهال النوادر ويسود الحوار والنكتة والكوميديا كما هو الحال في

Twitter: @ketab_n

السهرات المسائية التي لا يرغب المرء في انتهائها، ففيها يبتلع الزمن السردي الزمن المسرود كما ابتلع الحوت يونس، ومع هذه السهرات المسائية فإن المرء لا يرغب في أن يصل إلى شاطئ الفصل التالي.

وعندما يحصل المرء على كتاب كومبريه فيما بعد، فإنه يكتشف أنه الجزء الأجمل، فقد أوضح فيه بروست الأساس الذي تقوم عليه روايته: إنه الأساس الفني للانطباعية: ارسم ما ترى وليس ما تعرف. فكيف لنا أن نعي الأشياء قبل أن نزينها بالمفاهيم؟ فكل شيء شاهده الطفل يمتلك هذه القوة الشعرية المجردة من المفاهيم، فقد اندهش من تغير المكان الواضح لأبراج الكنائس التي اقترب من تعرجاتها، وبالمثل وعلى نحو معكوس استطاع أن يندهش من القمر الذي لم يرد أن يتزحزح من موضعه، ونظر إليه بإزدراء، وقد اندهش من زهرات اللوتس ونوار التفاح، وفيما بعد اندهش من العجوز الذي رماه في آن واحد بنظرة سريعة وحذرة وعميقة مثله في ذلك مثل الجاسوس الذي أطلق الرصاصة الأخيرة قبل هربه.

إن اللقاء الأول لمارسيل مع البارون دي تشارلوس سبق وإن أشار إلى أساس آخر: الناس ليسوا كما يبدون، إنهم يخفون ذوات متعددة في دواخلهم وليست هناك «أنا» ملكية ولا صاحب الحل والربط، وإنما هناك مرشحون متنافسون، وإن من ينجح في مسعاه يكون غير متيقن، ولذلك لا يكون المرء في مأمن من المفاجآت، فعلى من يعتمد بروست أكثر من اعتماده على مدبرة البيت فرانسوا التي سلكت

Twitter: @ketab_n

الطريق الرحب إلى الأسواق المسقوفة لتحضر أفضل أرجل العجل والفيلية البقري من أجل البيف المجمد، وقد ظل مارسيل ينقب عنها طوال الاثني عشر جزءا؟ ودون أن تتذمر صعدت من أجل سلطتها منصة الإعدام، لكنها كانت تتمنى خلسة الحبل لربيبها المدلل، ولكن في الختام عندما انتصب بمشقة بعد تعرضه لنوبة قلبية تحول إلى شخصية شكسبيرية مثل الملك لير. لقد أدارت مدام فيردورين صالونها بقبضة حديدية ولم تذرف الدموع بعد موت الأوفياء، وفي النهاية يعرف المرء أنها دفعت المعاش سرا للعراف سانيت الذي سخر منه أصدقاؤها بقسوة، وهكذا نبض قلب أيضا في هذا الصدر.

وعندما لا تنبض قلوب كثيرة في كل صدر، فإنها تفعل ذلك في أعماق قلب المبدع، إن صورة واحدة «لأنا» المؤلف هذا لا تكفي، فمارسيل وحده لا يكفيه، فقد توزع بروست على كثيرين، وهذا هو سر البحث عن الزمن الضائع، فهو سوان الذي تعلم ثمن الغيرة وعشق بسرور تحت أي ظرف، وهو العمة ليونه التي تحكم العالم من على سرير المرض وتعتقد بخلودها في السر، وهو كارلوس الذي قرص الفتيان في الخد، واستطاع أن يتشهى الرغبة الجسدية من خلال المعاناة فقط، وهو موريل الوصولي وفويرالذي خان نفسه بعد لكمتين أكثر من مارسيل وهو بلوخ المغرور والثرثار، وهو مدام فيردوين التي لم تدع لذتها بكروسان الصباح تتكدر بأخبار الصحف عن كوارث سفينة أليو بوت، وهو النفاج ليقراندين، الذي تظاهر أنه لا شيء، لكنه

Twitter: @ketab_n

كان دائما ما ينظر إلى النبالة، ألم يكن هو سانيت الغر الأخرق الذي تهافتت عليه رماح الهجاء، وفي النهاية ألم يصح أنه واحد منهم؟

وعلى فرض أن حزب الاتحاد قد قبله في النهاية، ونادي باريس للنبلاء، الذي يزعم أن بروست وهو في الرابعة والثلاثين قد سعى إليه جاهدا بتخطيط دقيق، لم يسع لمثله نابليون في غزوته لروسيا، فإنه لم يكن فرحا بهذا، ومن هنا فإن هذا هو الأساس الثالث للحياة والرواية: الإحباط، وببطء أزيح حجاب الإحباط عن البحث عن الزمن الضائع. فإذا ما تحقق الشيء المنشود، فإنه يكون قد فقد بريقه قبل ذلك بكثير، فلا شيء يمكن أن يكون كما يبدو، وفي النهاية فإن كل شيء أكثر ابتذالا مما تخيلته الفنتازيا المفرطة للصبي، ولأن الحب لا يدوم ولو لمرة واحدة، فقد أدخل بروست الحكاية بعد موت ألبرتين، التي بدت فيها وقد عادت مرة أخرى، وذلك من أجل أن يبين أن مارسيل الذي لا يكاد يحرك ساكنا من الألم على طول الجزء، كان قد نسي ألبرتين. لقد أصبح كل شيء قد تحرر من السحر حتى عملية السحر في الأدب نفسه.

ليس هناك حقائق سارة يوضحها لنا بروست، إذ يكمن ما هو سار في أن هناك حقائق، وإن ما هو سار يقودنا زمنا طويلا عبر الطريق العريض لليلك قبل أن يرينا زهراته الخيمية اليابسة، ولكي يجعل هذا الليلك يينع من جديد – إذ كان يتجنبه خوفا من أزمة الربو – فقد ضحى بحياته، وهذا ليس كليشهة على وجه الاستثناء،

Twitter: @ketab_n

فبموت الأم عام 1905 الذي به أضاعت حياة حلوته الوحيدة وحبه الوحيد وعزاءه الوحيد، بدأ النفي في الأدب، فقد عاد بروست إلى حجرته، وعاش من أجل الرواية فقط.

وقد عرف أن الزمن بالنسبة له الذي سيخلده هناك سيهدد بالانقضاء، وإذا ما كان عليه أن ينسى الزمن ذات مرة فإن نوبة الربو التالية ستذكره به، ولحسن الحظ فإن المريض منذ زمن قديم يقاسي مثل الناسك الذي أتعبه صديقه والتر بيري، الذي دفن مغمض العينين، ولسانه مدور، وبعد سبعة أشهر هزل بعض الشيء وبعث من جديد هاشا وباشا، لقد دفن حيا في كهفه المبخر الذي لا يدخله ضوء النهار، وكان لا يزال يصنع نكاته في رسائله الأخيرة موسومة بسكرة الموت، ووصل الزاهد هدفه قبل الموت بقليل.

وفي ربيع 1922 استدعى بروست سيلسته وقال لها بابتسامة سعيدة إنه كتب كلمة النهاية، وبإمكانه أن يموت الآن.ومنذ هذه اللحظة استطاع أن يعاين هلاك جسده بإحساس شبهه نيتشه المعذب بالسعادة الكريهة، وكأنه بذلك يراقب لصا يسعى إلى خزنة فولاذية أفرغت من محتواها منذ أمد بعيد.

لقد حافظ على ما هو الأفضل في عمله، وهذا العمل يحتل مكانة فريدة في عالم الأدب، فقد وصفه بروست نفسه على أنه تمثال القديس الموجود على قمة جزيرة لن يطأها أحد أبدا، لكنه أكثر من هذا، إن البحث عن الزمن الضائع هو القصر العظيم الذي سمي باسمه الملك

Twitter: @ketab_n

المصري، وهوالقصر العظيم الذي يجاور المنارة الأسطورية لمعمودية فرعون، وهو كمنارة لا تزال تحيط بالشاطئ الفرنسي، إن بروست الفرعوني يضيء لكل الذين يبحرون عبر الضباب، ومن منا لا يبحر من خلاله؟

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

زوجة بوتيفار

كان يقيم قبل ظهر كل يوم في مصر، عندما وصلته مراسلة عجيبة، وفي شهر يوليو عام 1935 كتب مؤلف رواية يوسف من كويزناخت إلى صديق له على أنه يخطط لعمل عظيم بين بوتيفار وزوجته، وقد عنى كلاوس أنها تمتلك شيئا ما من بروست.

يبدو أن هناك شيئا من الزهوعندما يتراءى للقارئ النابه لسوان أنه يشبه نفسه بالمؤلف، الذي لم ترتسم ملامحه إلا البارحة، ألم يستشعر المرء في الجبل السحري أنه يتذكر المرة تلو المرة عمل بروست، ففي سنة 1920 مدحت أنيته كلوب له روائيا يدعى بروست أو ما شابه ذلك. لقد انقضت خمس سنوات حتى اكتسب الاسم حضورا ثابتا، وفي ذلك الوقت فإن المقابل الهزلي الموجز لموت في البندقية والتي بنيت قصة ديفوس مثلها، كانت قد تحولت من رواية إلى غول مرعب التي أوضح فيها المؤلف بتنهيدة حارة كيف أنه أبدع الرواية من جسده.

أثار الغول عام 1925 زوبعة في جميع أنحاء أوروبا، وفيما بعد ظهر في العام نفسه اختفاء ألبرتين، وبرز على الساحة إيرنست روبرت كورتيوس الذي ربط بين كلا العملين، فهو الذي لم ينشر مناقشة رائعة للجبل السحري فقط، وإنما نشر أول دراسة رائدة حول بروست. بدأ المتخصص في الدراسات الرومانية الهايدلبيرغي مراسلة شخصية مع بروست في السنة الأخيرة من حياته، شعر بروست أنه قد

Twitter: @ketab_n

مجد، حيث إن الناقد العالم عرف في بروست الكلاسيكي الصاعد، أرسل بروست له في سبتمبر 1922 الجزء الثاني من سدوم وعمورة مع رسالة مرفقة أفضت بعد ترنيمة الألم المعتادة إلى مطلب ذي صبغة دينية بصورة مدهشة وهو: أن المرء يجب ألا يخاف من المضي قدما، فالحقيقة بعيدة المنال.لقد غدا كورتيوس بوصلته والمبشر الذي شغف به، وعندما أمضى توماس مان مع كورتيوس مساء يوم في هايدلبيرغ، كان على كورتيوس ألا يخبره عن العمل الرائع من باريس فقط، ولكن كان عليه أن يبين له أن كلا العملين كانا وثيقي الصلة بصورة عجيبة: الجبل السحري والبحث عن الزمن الضائع. من أين ينبغي على المرء أن يبدأ، ربما يبدأ بأن العملين في ظاهرهما الحقيقي روايتان أسطوريتان، فقد أراد بروست دون زيادة أو نقصان أن يكتب مثل القصص العربية التي كانت في عصره، إذ أعلنت رواية الجبل السحري في مقدمتها أنها أبدعت كل شيء من خلال الأسطورة، ولأجل هذا فقد حمل بطلها اسما أسطوريا كلاسيكيا وهو هانز، وكذلك فإن بطل بروست مثل هانز الأسطوري، ووفق هذا سمى سلفه الذي ورد في الجزء وكان الكتاب الأول:جان سانتويل – هانز، الذي يترجم بـ هانز من غير حزن، أو بالمثل بـ هانز (السعيد). ففي رواية خلفه مارسيل أحييت صور ألف ليلة وليلة، كما هو الحال في رواية الجبل السحري التي سردت فيه أساطير أندرسن وهب الهواء القطبي من مملكة ملكة الثلج.

Twitter: @ketab_n

وتستمر التطابقات، لم تصور كلتا الروايتين عصرا ما في مرحلة أفوله فقط، ولم تؤلفا موسيقيا وموسوعيا فقط – حتى لا نقول مع موسيل كبطن سمك القرش الذي يناسب كل شيء، فكلاهما قدم بطلا ساذجا خاب في حبه، (قطعة فنية! ماذا تعالج الروايات إذن؟)– إذ في كليهما يختفي في الواقع شاب وراء السيدة الخائنة القلب، وفي كليهما يلقي الماضي من خلال إغراء مقطوعة من أغنية أو أية رائحة بظلاله على الحاضر بشكل مهيمن كذكرى عفوية. قوي وتام وذلك حتى إلغاء المكان والزمان كان بروست قد غرق في الهناك والوقتذاك(في المكان والزمان)، بحيث إن المرء – إذا لم تكن رواية البحث عن الزمن الضائع قد رويت بصيغة الأنا – لا يكاد يقول إذا ما كانت هذه الـ«هو» تعني قطعة الحلوى التي تلذذ بها مارسيل، أو أنها تعني هانز المتمدد على المقعد، وإذا ما كان محاطا بهواء المرتفعات أو هواء البحر، فإن الفنادق كانت قابلة للتغيير أيضا، تللك الفنادق التي يرى فيها المرء ألبرتين أوالسيدة جاوجات، وهي فنادق يهتدي إليها المرء في بالبيك أو ديفوس، بحيث يحب المرء أن يدرس اللوحة الزيتية لمستشار البلاط أو صور البحر لإلستيرس. يعيش المرء في عالم من الطب والموسيقى، مع أطباء فكهين: بيهرينز أو كوتاد، ويعيش في مشاهدعظيمة لاحتضار التسيميسن أو الجدة، دائما ما يسترق المرء السمع لغزارة العذوبة، كما لو كانت ليشوبارت أو ليفانتويل.

يتتبع المرء في كل زمان ومكان الهاربة – الثيمة التي أمعن فيها

Twitter: @ketab_n

كورتيوس النظر في فصل رئيسي من دراسته لبروست، إذ إن الكلمة المكتوبة بخط مائل في مقدمة الجبل السحري هي الزمن، وهي الكلمة التي يحملها عنوان رواية البحث عن الزمن الضائع، إذ بها انتهت وبها – الزمن السرمدي – بدأت.إن كلتيهما روايتا زمن بالمعنى العريض، بحيث إنهما لم تسعيا عبر مئات الحيل الفنية إلى إدراك الزمن التاريخي فقط، وإنما لتدركا الزمن الملغز، ففي كلتيهما انطلق الزمن على شكل قطرات ذهبية سميكة كما هي دقات ساعة برج الكنيسة، التي قرعتها مطالعة مارسيل في حديقة كومبريه، لكن الزمن مجسم مبهم كما هو يهزل مرارا وتكرارا ويصبح في النهاية نحيفا، وفي نهاية كلتي الروايتين بدأ يسرع، ومرت السنوات بعيدا بسرعة خاطفة، دون أن يتمكن القارئ من أن يأخذ بناصيته.

في الجزء الأخير من رواية البحث عن الزمن الضائع عاد مارسيل بعد زيارة المصحة إلى العالم، ولم يعرف أصحابه كبار السن إطلاقا، وكذلك طارت سنوات البيرغهوف في الهواء بالنسبة لكاستروب نؤوم الضحى، وعندما غادر المصح أضاع نفسه في معمعة الحرب العالمية الأولى، بحيث أضاف بروست اللوحات الجصية إلى روايته. إن الحرب العظمى التي كانت خاتمة لكلتي القصتين ما هي إلا قاع حفرة مظلم يتدفق الزمن النهائي إليها بشكل أسرع دائما، ولكن النهاية هنا كانت كما هي هناك، فهي عند بروست الذي سما بباريس المعتمة إلى بغداد، التي يقوم بها هارون الرشيد بجولة كما هوعند توماس مان،

Twitter: @ketab_n

الذي ساق هانز مع طبول أديرسن إلى معركة فلانديرن.

إن مارسيل الذي فر من المصحة بطريقة هادئة، سيعرف عما قريب كيف يستغل الزمن، ففي هذا فإن البحث عن الزمن الضائع رواية تعليمية كلاسيكية بشكل تام، بحيث إنها قادت أبطالها من خلال ملهيات العالم إلى معرفة الوظيفة الحقيقية، لقد أدرك الحالم والمتردد في نهاية الرواية أن من الواجب عليه أن يجلس بسرعة لكي يكتب الرواية: لقد أصبح مؤلف الكتاب الذي قرأناه للتو، إن الفن شيء قائم بذاته، بشكل لا يختلف عما هو في الجبل السحري التي أشارت في مقدمتها اللاهوتية الغامضة بشكل عنيف إلى الرقم سبعة الإنجيلي، وقدمت نفسها بوصفها قصة تدور حول الإبداع من خلال الكلمة.

وبشكل مختلف عن مارسيل لم يعرف هانز الحالم بالطبع حتى نهاية الرواية أين تكمن وظيفته، ولم يخبرنا لماذا ظل فى القمة طويلا؟ وإذا ما كان متغطرسا، فإن السارد يشير فقط إلى أخذ الظلال للأشياء، لكن في هذه الأشياء لا ترى سوى الظلال فقط، لذلك لا يجوز للمرء أن يؤنبه بشكل قوي، لأن هذه العلاقة لم تتضح في الختام. وبعبارة أخرى: إفلاطونية، وبالضبط هذا، إفلاطونية عرفها كورتيوس من قبل على أنها الأساس الحقيقي للبروستية، كيف تسنى لهاتين الروايتين الزمانيتين أن تبرزا النماذج الأولية للخرافة بكل واقعية، إذ هدفت كلتاهما إلى شيء يقع خارج عالم الحس، وهذا لا يمنع أن تتوافر في

Twitter: @ketab_n

كلتيهما إفلاطونية حسية بشكل غير عادي، وعلى كل حال فإن الأفلاطونية عند بروست كالأعمى الذي يرى، في حين أنها ظهرت في الجبل السحري بصورة أقل ببسبب أفكارها أكثر مما هو بسبب غنى صلصة سمك السيدة شتور وبسبب توس ليس دوكس التي ثارت بعنف عبر الحديقة، وبسبب الخنازير الصغيرة التي كان على المرء أن يرميها في عيد المؤمنين وهي عمياء على الورق، أو بسبب فرديناند فيسهال المانهايمر الشقي الذي كان متلهفا إلى جاوجات وكان متفاهما مع سانيت.

ومن غير أن نخدع أنفسنا، فإلى جانب بروست فإن معظم المؤلفين هما فيهسال أو سانيت، وعلى الأقل في الجوهر الخلاق، في الاستعارة، وفي القطع الفنية، التي تدفقت عند بروست كما لو تدفقت من كهف علي بابا، إذ لايستطيع أحد أن ينافسه، فكيف إذن عند توماس مان؟ عندما شبه في رواية فيلكس كرول الموهبة بسفينة، التي تفتقر إلى حمل رملي كما تفتقر الموهبة إلى التدريب، فإنه قد وصل سلفا إلى ذروة الفن، وإن الشيء القاسي الذي قاله بروست عن فلوبيرينطبق عليه تماماً: فربما لا توجد في عمله استعارة جميلة واحدة، تلك الاستعارة التي يمكن أن تمنح الأسلوب نوعا من القيمة الخالدة.

وعلاوة على ذلك هناك ميزة أواثنتان يشترك فيهما توماس مان وبروست، فقد كان الاثنان شاءا أم أبيا وصافين لزمنهما وقاعدة

Twitter: @ketab_n

السلوك، ومن يقرأ بروست فإنه يهب نفسه لعلماء الاجتماع، فليس من العبث أن يمتد في سلسلة نسبه إلى الأجداد الأوائل فرع إلى عائلة ينحدر منها رجل عظيم آخرهو كارل ماركس، ماذا يعرف قارئ بروست عن إندماج اليهود أو عدم إندماجهم، عن التدرج الدقيق للنظام الاجتماعي داخل النبالة وخارجها، عن قضية دريفوس، وكيف فتت المجتمع حتى إلى خلية العائلة، عن التعاظم والوصولية وسير الحرب؟ على النقيض من هذا فإن بريخت حفار خشب شقي.

وبالمثل وعلى النقيض من توماس مان. عندما وصف في بودنبروك تغير المد والجزر الذي جرف معه الأغنياء الجدد، لم يدر في خلده سوى هانو وفاغنر، إلا أنه قدم وصفا للرأسمالية المبكرة التي حسده عليها المؤرخون. والشيء الآخر هو الوسط الذي ازدهر فيه كلا العملين، فالبحث عن الزمن الضائع والجبل السحري روايتان فكاهيتان، ولديهما بئر يمكن أن تسمى بالعميقة أوالخالدة: الساخر والفكاهي. وكلاهما كشف عن هذه البئر في بعض الأحيان، فلدى توماس مان فإن نصف العمل تقريبا لم يتغذ من الفكاهة، وإن هذا النصف الذي يمتد من طونيو كروكر ومرورا بموت في البندقية، حتى الدكتور فاوست، هو النصف الإشكالي.لكن بروست بدأ أيضا بأعمال جين سانتويل وأيام المسرات، التي كانت قد غدرت بالأسود، لكنها تفتخر بواحد منها تقريبا.

إن بروست الشاب كان شبه محب لذاته، ،إن لدى كل من بروست

Twitter: @ketab_n

وتوماس مان فطرة قوية أو ميلا قويا إلى النرجسية، التي حارباها طيلة حياتهما، لقد تحول الصراع عند بروست في النهاية، الذي عاند عمله جسدا ضعيفا، إلى استشهاد، فقد ربط بالسرير، وقدم كل شيء لا يزال ينبض عنده بالحياة إلى الفن، وإلى طائر الرخ الذي نهش لحمه.

إن توماس مان الذي طالما كتب كثيرا عن المرض يكبر بروست بثلاثة عقود، وإن رواية ذروة الحياة عنده قد جعلت من النرجسية الثيمة الأساسية، إذ إنه حول قصة يوسف إلى قصة عن الكيفية التي يتحول بها من شاب محب للذات إلى أن يشب محبا للناس ومعيلا. وبهذا كان عليه أن يهرب من امرأة تتقد حبا، تلك المرأة التي أصبحت مشعوذة تقريباً.

لم ينس السارد ما الذي لفت نظر ابنه إلى ذلك. فعلى العكس من هذا فقد اقتفى الأثر من خلاله، وبعد أن أشار بما يشبه الافتخار والاندهاش إلى القرابة التي لاحظها كلاوس، فقد ادعاها لنفسه بعد ثلاثة شهور. وأخبر توماس مان صديقه في أكتوبر عام 1935 أن السيدة المسكينة قد عانت كثيرا، بحيث تبدو وكأنها قد تأثرت بعض الشيء نفسيا ببروست، الذي استأثر بقلبه دفعة واحدة.

ومن خلال ألم الحب عند زوجة بوتيفار، وعذابات فقدها ليوسف، الذي نودي به بوصفه مفسر أحلام لفرعون، الذي ترقى حتى أصبح مدبر المملكة – من خلال رسم عذاب الحب وصل توماس مان ذروة فنه، وإن فرعون آخر قد تجلى له من هناك.

Twitter: @ketab_n

من الذي توفي أولا بالنسبة لألبرتين؟

لقد شكا بروست لصديقه لوسيان دوديه من أنه يكره المراسلات، ولكن هذا لم يمنعه من أن يجمع أكواما من الرسائل، التي فاضت كما فاضت الغلال عن أن تسعها الصوامع في مصر في سنوات الخصب، ودلف بروست من خلال شقوق الطبعة ذات الواحد والعشرين جزءا، التي أوقف فيليب كلوب رسالته في الحياة عليها. ضاعت آلاف الرسائل، لكن السيل البسيط لم ينقص، وعثر مرارا وتكرارا على رسائل مجهولة تعرض بالمزاد العلني.

في نهاية عام 1996 بيعت حزمة صغيرة بالمزاد العلني وذهبت هباء منثورا: مائة رسالة من بروست إلى لوسيان دوديه، من بينها أربعون رسالة لا توجد في طبعة كلوب، وقد نشر مقتطف موجز عام 1929 من إخراج دوديه نفسه الذي لم يدع رسالة واحدة كما أبدعها بروست، وإنما حذف كل شيء خاص وسيئ. فالمواضع التي عُلِّمت بالأسود من هذه الرسائل الستين والأربعين الأخرى لم تكن قد نشرت وقتذاك، وكانت قد أبعدت بحجبها عند كريستي: إن الفهرس قد أعاد محتوى الرسائل المائة كلها، وطبع الفقرات الأساسية كما كانت في الأصل. وقبل أن تعرض لضربات مطرقة المزاد فقد أعيد نقلها إلى منطقة ذات أقلية دينية، وكان بإمكان المرء أن يلقي عليها نظرة أخيرة. وإن الأسئلة التي تطرح حول هذه الرسائل بقيت دون أجوبة حتى اليوم.

بداية ولكن مرة واحدة: من كان دوديه؟ لقد بدأت مراسلة

Twitter: @ketab_n

بروست مع لوسيان دوديه الذي يصغره بسبع سنوات عام 1895، عندما بدأت أمور حبه مع رونالد هان بالسكون، سيتذكر بها هزات حمى الغيرة لغرام سوان، وإن الملحن المحزون انفصل عن الابن الأصغر للألفونس دوديه، الذي شاركه مارسيل بالثقافة و«القنزحة»، وبمفهوم الكوميديا، الذي أجبر الأصدقاء على أن يعتذروا عن الدعوات الجماعية بسبب نوبات الضحك الجنونية.

وإن الشاب دوديه الذي أدخل بروست في الصالون الذي لا يزال مغلقا، غدا محل ثقة، وتبادل معه الأسرار، التي تعاهدوا عليها كما القبور التي أقسمت أن تبقى صامتة، «القبر» أو «القبر الرئيسي» هي الكلمة التي جاءت في رسائلهما لهذا الغرض، وكما يعرف المرء بروست على الأقل، فإن ثقة عهد الصبا قد ظلت مصانة، إذ لم يرو فيما إذا كان لوسين أيضا – كما كان رينالدو المهذب في السابق يحميه عند المشي من أشعة الشمس بوساطة مظلة مفتوحة، ولم يفته الاهتمام الموجه على كل حال، وسماه بروست فأري الصغير، وقدره بكل صراحة على أنه يشبه أخاه الأصغر.

ولم يعتد لوسيان على غير أن يدعى بصغير العائلة «السيد الذي يعرف كل شيء»، وكان موهوبا بوصفه كاتبا ورساما، ولم يخرج من الظل المضاعف للأب ذائع الصيت وللأخ ليون ذي الأسلوب الأكثر خشونة، الذي كان يكبره بعشر سنوات، وكان قائد الحركة الفرنسية، وهيأ لبروست فيما بعد الحصول على جائزة كونكورت. وإن جهود

Twitter: @ketab_n

لوسيان ليصنع من نفسه نموذجا قد سارت في اتجاه آخر، إذ إنه أصر أن يوضع على رأس القائمة، وظل بمعية القيصرة إيوجين، التي أهداها ثلاثة كتب، وعرف أنه قدم كل شيء لكي يكتب حرف الدال مع علامة الحذف في اسم عائلته، ومثل بروست ظل صغير أمه التي عاش معها حتى موتها، – وكان له في هذا شأن أطول مما هو لدى بروست. توفيت مدام دوديه عن عمر يقل عن السابعة والتسعين، وعندما لحق بها ابنها بعد ست سنوات خلف وراءه رواية عن باريس الشاذة تحت عنوان الكواكب التي اختفت بطريقة غامضة.

أما كيف استقر بروست مع لوسيان على هذا الكوكب، فقد أهمل مؤلفو السيرة هذا لسوء حالة المصادر، حتى وإن كانت التناقضات الآن أقل مما هي علية في زمن بروست أيضا، الذي دعا أحد الصحفيين بسبب التلميح إلى علاقته مع دوديه إلى النقاش، وقد حذف داودت في مختاراته للرسائل المواضع كلها دون استثناء، التي جاء بدلا منها في لغتها الخاصة الاختصار «م. ج» الذي يعني إنسانا شريرا، ويحمل إشارات إلى حب الرجال. وقد أعيدت هذه المواضع في كتالوج كريستي، الذي لم يكد يغني شيئا بالنسبة إلى مؤلفي السيرة في هذه المسألة الهامشية، ففي الرسالة الأخيرة التي نشرت للمرة الأولى في يناير عام 1922 كتب بروست، لقد ظل داودت شابا حيث إنه سمح له أن يقبله، «إذ إن هناك رسالة تحمل توقيع (م. ج، أي إنسان شرير) تشير إلى أن أحدنا لم يقبل الآخر».

Twitter: @ketab_n

ولكنه لم يرغب في تقبيله، في حال أنه لم يتحوط في أن يقدم نسخة مصححة بإمضائه للأجيال القادمة، التي يتوقع أنها لن تحافظ على رسائله، إذ تشير النسخة الأخيرة إلى أن دوديه حذف في بعض الأحيان ببراءة جملا كاملة، وهي جمل تجذب الانتباه إليها من خلال الحذف. لماذا لم يسمح لقراء مختاراته أن يعرفوا أن بروست زار الشاب دوديه في بيت الأم الريفي؟ إذ إن الصمت المتواضع والواضح كان قد انتهى بالذكريات الحميمة – فإذا لم يرد أن يسكت هؤلاء القراء، فإنه لم يرد أن يوقظ الكلاب النائمة.

إن الرسالتين الاثنتين الأكثر أهمية من حزمة الرسائل التي لم يلتفت إليها إلا قليلا هي تلك التي علمت بأنها «نوع سيئ»، فإحدى هذه الرسائل تعد نادرة جدا تخبر عن مشهد يعود إلى سنة 1919، الذي أنهك فيه بروست صديقه في وضع من الكآبة والتبلد، الذي يقترب من الهلوسة، وأخبرعن اليوم غيرالعادي، الذي تركه وراءه: إذ إنه أخبر عن سكرتيره الذي عاش معه ستة أشهر، وهو السويسري هنري روخات، وبعد تردد طويل فكر بروست في ما إذا كان السويسري هنري روخات سيصحبه في رحلته، أوأن يحضره إلى محطة القطار فقط، وأخبر كيف أنه أنشد هناك بعد وداعه من سعادته بانفراج الوحدة المستعادة بصوت عال، ثم كيف أنه بعد ساعة مارس نذالة بسبب من الأدوية المنشطة، إذ إن العفة المطلقة التي أوجبها على نفسه مدة طويلة كان قد اخترقها تماما عند ألبيرت لي جوزيه كما وضح

Twitter: @ketab_n

ذلك كاتلوج كريستي.

وإن الرسالة العظيمة من المجموعة هي إحدى الرسائل القليلة التي سرد فيها بروست موت ألفرد أوجستينل بإسهاب، وقد أدرجت هذه المصيبة في الجزء الأخير من « البحث»، الذي جزع فيه السارد مارسيل على ألبرتين التي ماتت في حادث ركوب الخيل. وقد نشرت أجزاء من هذه الرسالة في مجموعة دوديه ومن ضمنها اعترافات بروست، ففي كل مرة يستقل فيها السيارة كان يتمنى من أعماق قلبه أن يفوته القطار التالي، وإن هذه الاعترافات قد نشرت في مدونة دوديه، بحيث إن دوديه قد أبدل سبب الشكوى مرة ثانية بوضع ثلاث نقاط.

وتقدم لنا هذه الفقرة المحذوفة لغزا بسيطا نماما، لقد كتب بروست لدوديه عن الصديق والأخ والصبي، ولم يعرف كيف يدعوه، وهو الذي سقط أمام أنتيبس بالطائرة التي اشتراها بروست، وغرق، وبعد أسبوعين نهش السمك نصفه وسحب من البحر، وقد انضاف شيء عارض في هذا التفصيل الفظيع للوصف الفريد من نوعه، وكتب بروست عن موت أحد الأشخاص منذ زمن طويل، الذي جاء الحديث عنه «في ظلال ربيع الفتيات» مبتسرا.

ماذا وراء هذا كله؟ فقد سبق بشكل واضح موت ألفريد أوجستينل موت مبكر تم نقله إلى الأدب، وقد سمي هذا بنموذج ألبرتين غير المشهور، الذي امتلك النهاية سلفا، تلك النهاية التي لقيها

Twitter: @ketab_n

خلفه ألفريد أوجستينل، ويبدو أنه لم يكن مأمونا بشكل تام لدعم نموذج بروست، إذ أخذ بروست نفسه يشير إليه، ورأى فيه نوعا من الإجبار على التكرار، وإلا لم يكد بروست أن يربط بين الحدثين. وبالمثل أشار دوديه عندما لاحظ – على النقيض من كوكيتو قشعريرة الصديق، الذي كان عليه أن يرى الاعتزاز بحياته كواحد من الأوائل ممن استخدمت له كلمة موهبة – أن بروست عبارة عن حشرة كئيبة.

لقد ظل لوسيان دوديه وفيا له حتى النهاية، حتى عندما بدل بروست الأصدقاء، وحتى يحبط المتنبئين القدماء، فقد أخذ بالاختلاط مع محبي المجلة الفرنسية الجديدة فقط، ولم يجعل الإحباط داود أعمى أو ظالما، فبالإضافة إلى الملاحظة التي تفيد بعدم وجود كلاب أو أطفال في «البحث»، فإننا مدينون له بصورة من أجمل صور بروست التي نقلها لنا من خلال صديق، لقد وصف دوديه كيف تغير كل شيء عند بروست بعد وفاة أمه، وكيف أنه لم يعد يحسب حسابا إلا للرواية؟ وكيف أصبح الشك عنده قويا جدا، وكيف أنه لم يعد في النهاية يؤمن بالشفقة، وبعد حصوله على جائزة كونكورت في خريف 1919، أي التقدم المتأخر نحو النجاح، عاش بروست من أجل شيء واحد فقط وهو: شهرته السريعة، التي ازدهر من خلالها صيته الذي جاء فيما بعد، إنها الحقيقة الأجمل والأجدر بالنسبة للمؤلف – التي لاحظها داودت بدقة – أكثر من أساطير بروست عن الزهاد الذين أنكروا ذواتهم.

Twitter: @ketab_n

لقد ظل يعيش منعزلا، واستنزفت حالات الموت الكثيرة قواه، لكن من الذي مات أولا، الذي طبع مذهب بروست بطابع حب الحياة؟

إن الجزء الأول هو الأكثر عمقا، وإن الموت الذي لاحظته دراسة بروست بشكل قليل صادف مارسيل بروست عندما كان في الحادية والعشرين، فقد تعرف من خلال صديقه روبرت دي بيللي على شاب من جنيف وأحبه بكل صراحة، إنه إدغار أوبرت، فقد وجدت على صورة أوبرت التي عرف بروست كيف يحصل عليها الأبيات الشعرية الحزينة الآتية:

«انظر إلى وجهي
اسمي كان بإمكانه أن يكون
كما أدعى ليس أكثر من ذلك
متأخر جدا
الوداع»

لم يخدع التنبؤ الشاب، ففي سبتمبر 1892 توفي أوبرت على إثر التهاب في المصران الأعور، وفي الصيف التالي سافر بروست إلى سويسرا، يلاحقه التفكير بأوبرت في كل مكان، وكتب إلى صديقه في فرنسا: «المسكين إدجار، إني أحرم على نفسي السرور الذي قيضته لي رؤية البحر السويسري الذي لن يستطيع أوبرت أن يراه على الإطلاق».

Twitter: @ketab_n

وفي دراسة الشعر الوجداني أيضا التي ما لبثت وأن نشرت فيما بعد في المجلة الصفراء، يبدو أن الميت قد قدم بطريقة غير محددة، وإن الحضور الفعلي الذي سماه بروست التأمل الروحي الغامض، الذي دار في إنغادين، يدور حول ذلك الشخص، الذي لم يكن موجودا، وحصل في غيابه الكبير نوع من الوجود الصوفي، الذي يجعل السارد يحلم بلقاء يفيض بالسعادة، لكنه أيضا جعل فتور المشاعر وموتها يسبق ذلك.

بعد موت أوبرت بأربعة شهور كتب بروست بنبرة كئيبة عن الصديق المشترك، وتذكر كيف أن أوبرت بعد ملاحظة دقيقة وساخرة نوعا ما كان يضغط على راحة يده بطريقة مسالمة دائما، (ومن هذا الجانب فإن القارئ يتذكر مارسيل الذي بجَّلَ التطور الثقافي الذي جعل المصافحة بينه وبين ألبرتين فعل اتصال مسموحا)، وشكا بروست من أن الأيام اللطيفة والصافية استدعت تذكر العودة المشتركة إلى البيت مع إدجار إلى درجة قريبة من الهلوسة. وكذلك فإن حاضر الحبيبة الغائبة هو هلوسة في قصيدة إنغادين النثرية.لكن من المعني بهذا دائما، فإن أوبرت لم يخرج من حياة بروست بعد موته، فقد أهدى لصديق الظل كتابه الأول، وهذه هي أمنيته على الأقل، لكن عائلة أوبرت أعاقت هذه اللفتة، كما أنها دمرت رسائله إلى إدجار، لكن ظلت هناك رسالة أخرى، وهي وثيقة جديرة بالرعاية:وهي رسالة التعزية التي ألفها بروست عندما عرف عن وفاة أوبرت.

Twitter: @ketab_n

لذلك فهو جدير بالاحترام، لأنه عمل لبروست حالة من العزاء تتصف بالتثبت والتصبر، وهذا هو الذي جعل الأمر ذا دلالة كبيرة، فبكل وضوح فإن أوبرت أول إنسان كان على بروست أن يعرف منه كيف يستطيع الحب أن ينمو بالتسويف عندما يثبط، وعندما كان أوبرت لا يزال على قيد الحياة، فإن مارسيل لم يكن يحبه، فبعد الموت المفاجئ فقط بدأ بروست بالآم المسيح من خلال التجلي، وقد ظل أوبرت الميت بالنسبة له سببا للغيرة، مثلما كتب مؤلف سيرة بروست بينتر، الذي كتب بطريقة أفضل: أوبرت الميت بالذات. لقد أصبح أوبرت الألم والتقديس والغيرة والنسيان البطيء فيما بعد، وهو الذي عرف بروست من خلاله اتقاد المعاناة التي تتقد من خلال انعدام التحقق الأبدي، حتى تمضي في طريق مليء بكل ألسنة اللهب.لكن من أين عرف المرء هذا بشكل جيد؟

ألبرت وأوبرت – لقد خدعنا طويلا بوضع اللام محل الواو.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

وصيفة مدام بوتباس

في شهر مايو سنة 1910 سافر مارسيل بروست مع أمه إلى البندقية ليقتفي أثر رسكين. وفي سنة 1930، أي بعد تسع سنوات من وفاة أمه، وقع قنصل فرنسي على توقيع بروست في سجل زائري جزيرة الدير سان لازارو، وهذا أمر لا يبعث على الغرابة، لكن مثار الغرابة هو التاريخ، إذ لا يعود التوقيع إلى شهر مايو وإنما إلى شهر أكتوبر، الأمر الذي يستدعي من المرء أن يستنتج أن بروست كرر زيارته إلى إيطاليا في السنة نفسها.وربما يكون قد سافر في هذه المرة وحيدا، وقد سكت الباحثون عن ذكر العمل الذي قام به هناك، وإن زيارة بروست الأولى والثانية ظلت في إطار الدراسات بقعة بيضاء تثير الريبة.

وإن هذه البقعة البيضاء لم تكن الوحيدة، وإنما واحدة من البقع التي أصبحت معروفة لدينا من خلال الصدفة، ففي الحياة المزدوجة التي عاشها بروست لم تكن الأسرار هي الاستثناء وإنما القاعدة، وعلى المرء أن يتكهن فيما إذا بدأت هذه الحياة المزدوجة بشكل مبكر، إذ إن هنالك رسالة من الشاب بروست تبدو فيها القاعدة ليست سارية المفعول بعد، وقد دارالموضوع في الرسالة حول الزيارة الثانية لمكان الشهوة، والرسالة وثيقة عجيبة للغاية وكانت قد نشرت منذ 1993. وإذا ما بدا هذا يناقض الأسرار التي جاءت فيما بعد، فإن الدافع للحياة قد أذيع في هذه الرسالة منذ زمن مبكر.

Twitter: @ketab_n

بدأ بروست كتابة رسالة الالتماس على النحو الآتي: «عزيزي وحبيبي الجد»، وهي رسالة يطلب فيها بروست أن يستدين من جده مبلغا صغيرا من المال، وإن السبب في رغبته في الدعم المادي يعود إلى طبيعته الحساسة:

أرجو أن تتكرموا عليَّ بمبلغ ثلاثة عشر فرنكا، التي أردت أن ألتمسها من المنسيور ناتان، لكن أمي فضلت أن أسألك، وذلك لأن من الضروري أن أبحث عن امرأة لكي أتوقف عن عادتي السيئة في الاستمناء، ولكون أبي أعطاني عشرة فرنكات لبيت الرذيلة، لكنني أولا كسرت عند هيجاني طنجرة ليلية بثلاثة فرنكات، وثانيا إنني لم أستطع أن أمارس الجنس مع هذا الهيجان، والآن أنا لا زلت كما كنت من قبل، ولا زلت محتاجا إلى عشرة فرنكات حتى أفرج عن نفسي، بالإضافة إلى ثلاثة فرنكات من أجل الطنجرة، لكنني غير مطمئن لأن ألتمس من أبي نقودا مرة أخرى وبسرعة، وآمل منك مساعدتي في هذا الأمر. فهو أمر – كما تعرف – ليس غريبا فقط، وإنما هو فريد لا يحدث مرتين في الحياة، بحيث إن المرء يغدو مرتبكا حتى يتمكن من ممارسة الجنس.

وإذا لم ير المرء الرسالة مكتوبة بأم عينيه، فإنه عندها يجب أن يعدها مزيفة، فهل كان مثل هذا الحديث يدور في هذا الوسط الاجتماعي الراقي بين الحفيد والأم والجد؟ فهل كان من المألوف أن يصب المصروف اليومي في الرذيلة؟ وإن السخرية الحقيقية لهذه الرسالة التي

Twitter: @ketab_n

يسول فيها بروست تعود بشكل أعمق إلى كون الإنسان لا يكون مطمئنا بشكل نهائي، فيما إذا كان بروست صريحا إلى هذه الدرجة، وفي ضوء كل ما نعرفه عن بروست فإن ميوله الجنسية في هذا العمر تنحصر في الشباب، وقد أخبر أندريه جيد العجيب قبل موته بقليل أن بروست لم يضاجع أية امرأة. ولا يظن أنه استطاع أن يكرر زيارته على كل حال، وعلى ما يعتقد فيفترض أن الجد قد دفع الثلاثة عشر فرنكا، أو أن بروست غادر مكان الشهوة أيضا في المرة الثانية خالي الوفاض بطريقة مغايرة لما يتنبأ له به الضمير الإنساني.

ولا يُستنتج بشكل كلي شيء آخر حقا، إذ غدت العلاقة الغرامية غامضة وساخرة، فربما لم تحصل هذه الزيارة على الإطلاق، وربما احتاج بروست المسرف النقود ليرسل إلى واحدة من زرافاته التي كان يبجلها كثيرا سلة من السلحبيات. وإن الطنجرة التي تكسرت كانت عبارة عن تعمية وذريعة وتمويه، إذ لدينا مع رسالة بروست الشاب وثيقة لهذه الحالة النادرة ليس لها أن تكون ذريعة تغطي زيارة بيت الرذيلة، وإنما هي على النقيض من ذلك فإنها تجعل من بيت الرذيلة ذريعة.

لقد كان الاعتذار عند بروست كل شيء غير أن يكون نادرا، فقد اعتاد على تقديم الذرائع، وحقق في ذلك بعض المهارة، لكنه لم يضع سذاجته في هذا مطلقا، كما يلاحظ المرء في مواطن كثيرة، والمثال الأجمل هو مثال خادمة البارونة بوتباس – فهي واحدة من الصور

Twitter: @ketab_n

التي لا تنسى، وذلك لأنها ظلت على طول الرواية عبارة عن شبح، وأقصيت عن الحدث بسبب قوة جاذبية ألبرتين المتنامية كما هي قوة جاذبية النبات ذي الأوراق الحريرية. لقد طارد مارسيل هذه الخادمة طويلا، إذ إن صديقه روبرت دي سانت–لوب أخبره أنها جميلة وجاهزة لكل شيء، وأصبحت وصيفة مدام بوتباس بالنسبة له جوهر رغباته المدفونة وهدفها، ذلك الهدف الذي لم يحققه إطلاقا.

على الأقل ليس في الصياغة الأخيرة للرواية، ولكن بصورة مختلفة في تمهيد «البحث» أي في ما يسمى بـ «الوصف الموجز»، إذ إن هناك فقرة طويلة حول هذا تبرز كيف تتطابق الرؤيا مع الراوي، وبالنسبة لقارئ البحث فإن لهذا وقعا لا يكاد يصدق، إذ كيف تكون وصيفة بوتباس في موعد غرامي حقيقة؟

لقد وصف هذا الموعد الغرامي في المسودات، وتهيأت لمارسيل فرصة لقائها في بادو، إذ هناك ظهرت الخادمة التي طاردها لمدة طويلة، امرأة ضخمة شقراء، وجهها مشوه من خلال جروح حريق وجروح مقطعية كأنها كانت ناتجة بسبب حريق باخرة من البواخر. وشاهدا معا جدارية جيوتو في ساحة المعبد، أي شاهدا الفضائل والشرور، وفي الختام ذهبا إلى الغرفة، وبعد السلام تجاذبا أطراف الحديث لفترة وجيزة، واقترح مارسيل أن يصطحبها بالسيارة، نعم، إنها تعشق السيارات، أجابت بحماس: «أفضل شيء أحب السيارات، وأحب على وجه الخصوص لعب القمار، والخمر اللذيذ وسباق الخيول»

Twitter: @ketab_n

وهذه هي الاهتمامات النموذجية لفتاة شابة تعيش حوالي سنة 1900. وقد لاحظ بروست هذا بكل وضوح وقد ذكر وكأنه يتنحنح كلمة التواليت.

إن الأشرطة اللاصقة على خدود الفتاة التي حلقت بشكل سيئ تبين بطريقة أكثر وضوحا، كيف بقي مكبا في المسودات على كتابة السيرة الذاتية، لقد غير بروست تقريبا كل شيء من أجل روايته، وكأنه لم يبتكر شيئا، ففي رسائله يتحدث بلا مبالاة بضمير المتكلم المفرد، وإذا ما قصد سارده فإنه يجب على علماء اللغة الأفذاذ أن يرتعدوا، وكذلك فإن المشهد مع الخادمة في بادو – وبسبب البساطة فإننا ننزع عنه الباروكة – يمتلك سمة واقعية قوية، ويمكن للمرء أن يظن متى بدأ المشهد: ففي كل أكتوبر ينهي فيه بروست الإشراف على الوالدين، فإنه كان يسافر إلى إيطاليا.

ففي قصته عن اختفاء ألبرتين أخبر بروست عن الطريقة التي تصرف بها في رحلته الأولى لإيطاليا، فقد كان في نيته لقاء ما، لكنه لقاء مني بالفشل بسبب خطط أمه اللحظية التي تغيرت، فبروست الذي كان ينوي إشباع رغبته الجنسية قد غضب غضبا عنيفا، وإن الشيء الذي لم يستطع أن يحققه بسبب مصاحبة أمه كان بروست – كما يتكهن المرء – قد عوضه في رحلته الثانية إلى إيطاليا، فقد كان الشخص الطويل المشوه الوجه في انتظاره في بادو، وبكل وضوح فإن بروست كان قد طلبها خطيا معتمدا في ذلك على روبرت

Twitter: @ketab_n

صديقهما المشترك الذي أصبح في الرواية يدعى روبرت دي سانيت لوب، وهوصديق من دائرة النبلاء الشاذين جنسيا، لقد زار مارسيل والخادمة جدارية جيتجو مرتين، وفي هذه لا تغيب عن المرء تلك اللذة التي يتبعها تجاذب أطراف الحديث بحميمية.

ثمة أمران بسيطان يغمزان في هذه الأحاديث الموثوقة، يتمثل الأول بالمعرفة التي تبعث على الدهشة من أن بروست كان بإمكانه أن يقابل الخادمة منذ زمن مبكر، لأنها تنحدر من منطقة في كومبريه، ففي النسخة النهائية للرواية غدت خادمة مدام بوتباس أختا لثيودور من كومبريه، وقد حافظ بروست على هذا الموتيف بتعديل طفيف. ويتمثل الأمر الثاني في خصوصية حديث الخادمة، إذ إنها لا تنهي جملها بالاستعلام السائد، أليس كذلك؟.لكنها مدت حرف الباء؟ وإن الباء المضعفة ينبغي أن تشير إلى النبرة الريفية أو إلى طريقة خاصة للنطق، التي صنفها بروست تحت هذا الشكل: أتفهم جيدا، أليس كذلك؟إنه أمر مضحك؟ أليس كذلك؟ إنك تستغرب أنني قلت أليس كذلك بالباء المضعفة؟ إنها بالمعنى الحرفي طريقة في الكلام االتي لا يستطيع المرء أن ينساها بسرعة.

وبهذا نكون مستعدين للنظرية السيرية، فمن – حتى وإن لم يكن وحيدا بالضرورة – الذي كان يقف خلف خادمة بوتباس بوصفها نموذجا حياتيا، فربما كان اسمه الحقيقي روبرت أورليش، الذي عبث بمراسلات بروست كلها ولكن لا يُعرف عنه شيء يذكر، فقد

Twitter: @ketab_n

عده مفسر الرسالة على أنه ابن أخ فيليسيه فيتاو، الخادم القديم لعائلة بروست، وألمح تاديه مؤلف السيرة إلى صديقة إلى القرابة وأرجعها إلى الخلط.

وإذا أمكن أن يكون روبرت أورليش قد أتى من منطقة بروست، أي من مدينة صغيرة تسمى منذ احتفالها بعيد ميلادها المئوي بإليريس كومبريه، فإنه لم يأت على ذكر شيء من هذا، ومما هو لافت للنظر أن يظهر الاسم الأول روبرت في ملاحظات أورليش، إذ منح الاسم للصديق المشترك، الذي يدين له مارسيل في لقائه مع الخادمة، إذ يظهر أورليش مباشرة في الرسائل في السنوات التي تلت زيارة بادو، وإن الرسالة التي بقيت بالصدفة تعود إلى سنة 1906 وتشير إلى صداقة مضى عليها وقت طويل، وقد التمس أورليش من صديق مشترك ليسد المنسيور مارسيل بروست مبلغا مقداره ألف فرنك، ومن هنا نستدل على أن بروست أقرض أورليش مبلغا من المال، وربما أهداه هذا المبلغ، وإن سداد أورليش لهذا المبلغ من خلال وسيط يشير إلى أول خصومة بينهما، وإذا ما حصلت الخصومة فعلا فإنها لم تدم طويلا.

وفي شهر يوليوعام 1907 جلس الشاب الذي وصفه بروست بأنه متحفظ ووسيم « حتى وإن كان من دون تعليم أساسي» (من غير أن يتعجب من هواياته)، على مائدة في فندق ريتز، الذي اعتاد بروست منذ سنوات أن يدعو إليه حفنة من أصدقائه النبلاء، وفي هذه الأثناء

Twitter: @ketab_n

كان بروست قد وظف أورليش عنده، بحيث يغدو ليس من الصعب أن نخمن الغاية التي من أجلها وظفه: إنه وظفه كخادم، وقد دعاه بروست في بعض الأحيان بسكرتيره الوهمي، أما ما هي الوظيفة التي قام بها هذا السكرتير، فإن هذا يتضح من خلال رسالة كتبها بروست لأحد الأصدقاء سنة 1909 ليجهز له سكنا في الإجازة في نورماندي.

وليس من المفروض على أورليش عندما يأتي إلى بروست في كابورغ أن ينام بجانبه، فهو لا يبالي بتاتا - وهذا هو ما عند بروست الذي أكد بشكل لافت للنظر الإشارة الواضحة إلى العادات والأمنيات المتناقضة، وقد ظل بروست يحاول المرة تلو المرة حتى سنة 1912 أن يتوسط لأورليش حتى ينزل في بيوت النبلاء. كانت مدام ستراوس تبحث عن سائق؟ لكن أورليش كان حاضرا. وقد بدا له بصورة أو بأخرى محبا ومديناً له بالفضل، لكنه عاد مرة أخرى وأنكر أن يكون على معرفة شخصية به، كما لو كان في هذا عمل مستنكر، ولذلك فإن كل شيء يسير في هذا الاتجاه.

ومن ثم فإن ثمة حرفا فيه كثير من المبالغة، ففي موضع من المراسلات يصادف المرء هذا الحرف مرة أخرى، وقد حدث هذا في رسالة وجهها إلى رينالد هان عام 1970، تلك الرسالة التي لم يختمها بروست بالأمر الذي يجب أن يطاع «احرق» كما اعتاد دائما. ويدور الموضوع حول حياة الحب لروبرت أورليش، الذي

Twitter: @ketab_n

كانت لديه عشيقة كتبت له أن بروست غير المتحفظ قرأ هذه الرسالة واقتبس منها لرينالدو قائلا: «جميل، اليس كذلك؟ (أم بلا)» وتبدو بالفرنسية أشد وضوحا Des choses jolies، ppas? (pour n'est-ce pas).

وهنا عادت كلمة «لا» بالباء المضعفة ثانية، وبكل وضوح فهي كلمة ودية بين أصدقاء أورليش، وهي الكلمة التي تفوهت بها بصلابة ريفية خادمة البارونة بتوباس التي كانت تحب السيارة والخمر ولعب القمار.

وربما يكون ذلك كله محض صدفة، وإن خادمة بوتباس خيال خاص، لكن مقدارا قليلا من المال، إذا قلنا: ثلاثة عشر فرنكا، فإن المرء يمكن أن يراهن على شيء واحد، فالملاك الشهوانية الضخمة والشقراء لمدام بوتباس كان لديها جروح مقطعية في الوجه مما دفع بروست أن يطلب من أحد الصيادلة في كومبريه أن يعالجها، ويود المرء أن يراهن على نحو تقريبي على وجود معلومة في الأخبار المختلطة في الجرائد الفرنسية اليومية سنة 1900 حول مأساة الباخرة التي أدت إلى وجود عدد من الجرحى.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

سيلسته

عندما هم مدعوو حفلة الزفاف بالمراسيم في كنيسة القرية وصل ساعي البريد، وسلم العريس برقية، فتحها المنسيور ألبيرت وانتفض بعنف، لقد عرف أن هذا العميل إنسان غير عادي، لكن المنسيور بروست أرسل إليه من باريس تهنئة بالزواج.

في مارس عام 1913 تزوج أودليون ألبيرت جيلسته التي تصغره بعشر سنوات، ونقلها من المقاطعة إلى العاصمة، حيث عمل عند المنسيور بروست، الذي كان يتذكر سائقيه الذين لم يحبهم ولو لمرة واحدة. لقد أصبح أودلين عربجيا «سائق الحنطور»، وذلك عندما لاحظ أن وجباته اليومية في المطعم الذي يعمل به منذ أربع عشرة سنة تتكون من بقايا الطعام الذي يخلفه الزبون.(106).وبناء على توصية من جاك بيزيتز صار سائقا عند بروست، ففي كل ليلة كان ينتظر في مقهى إلى جانب الهاتف، ليكون مستعدا عندما يستدعيه بروست، وفي أبريل قدم أودلين زوجته لبروست، وإن سيلسته الخجولة لم تنبس ببنت شفة، لكنها أحست كيف كان السيد النبيل الذي يرتدي الجاكيت البيتي يطالعها، لقد ترك انطباعا قويا في نفسها، فهي نحيفة لكنها ليست ضامرة وذات يد جميلة، وأسنان ناصعة البياض، وخصلة شعر مرفوعة على الجبين، ولفتة جذابة جدا وعندما باح أودلين له بمعلومة بعد نصف سنة تفيد أن زوجته لم تتأقلم في باريس، وانزوت في زاوية البيت، بين له بروست أن السبب يعود إلى

Twitter: @ketab_n

أن سيلسته تفتقد أمها. أما كيف لاحظ هذا في الزيارة التي لم تستغرق سوى ربع الساعة، فإن هذا يغدو لغزا. وحتى تخرج من قوقعتها، فقد قدم لها بروست طرودا فيها نسخ كهدية لتوزعها.

وفي هذا الوقت كانت لا تزال الخادمة سيلينه وزوجها نيكولاس يعتنيان ببروست، وعندما كان على سيلينه أن تذهب إلى المستشفى فقد حم القضاء على جيلسته، فقد قدم لها نيكولاس إرشادات دقيقة تبين كيف لها أن تقدم القهوة بالحليب مع الكرواسان. وقال لها أودلين إنها يجب أن تكون نابهة عند بروست بحيث لا تثير شكوكه، إذ إنه يلاحظ كل شيء، لكنها لن تجد رجلا ساحرا مثله.

وكذلك ففي سنة 1913 جاء اليوم الذي بدأت فيه علاقة غرامية لم تدم طويلا، وكانت الأكثر دهشة منذ جميلة والوحش. تنتظر سيلسته في المطبخ تحسبا لطلب بروست للكرواسان، وقد عرفت من أودلين أنه يشعل بعد الاستيقاظ مسحوق البخور، وعندما وطئت قدمها غرفة نومه للمرة الأولى لم تكد تعرفه بسبب موجات الأبخرة المتصاعدة من الدخان، فهو لم يشعل سوى لمبة ليلية واحدة فقط، فهي تتذكر قائلة: «لقد رأيت سريرا نحاسيا وقطعة ملاءة، حيث يسقط الضوء الأخضر على الأبيض، لم أستطع أن أعرف من المنسيور بروست سوى القميص الأبيض الذي يرتديه تحت البلوفر السميكة، والجزء العلوي من الجسد الذي يستند على وسادتين، لقد ظل الوجه في الظل، ولم أشاهد بسبب الأبخرة المتصاعدة من الدخان سوى

Twitter: @ketab_n

العيون التي نظرت إلي، لقد أحسست بها عندما رأيتها».

لقد كان هذا اليوم حاسما بالنسبة لمستقبلها، وإن سيلسته التي تبلغ اثنتين وعشرين سنة من العمر والمتزوجة حديثا ظلت خادمة لبروست حتى وفاته، لقد ظلت جاهزة سبعة أيام في الأسبوع واثني عشر شهرا في السنة لتقوم على خدمة سيدها، لقد ذهبت معه مرة واحدة إلى سابورغ، وقد انتابته في طريق العودة في القطار المزدحم أزمة ربو مخيفة، وقرر ألا يسافر ثانية، فقد أمضى السنوات الثماني الأخيرة في البيت.

كيفت سيلسته برنامجها اليومي وعاشت حياة اليوم نفسها التي عاشها بروست، فصباحه يبدأ في الساعة الرابعة بعد الظهر، وإن «مساء البارحة» يعني عندهما الساعة التاسعة صباحا من اليوم نفسه، وقد عرف بروست تماما أن نظام الحياة الذي كلفها به غير عادي، فالأشكال الثابتة للوجود كانت بعيدة عن أن تكون طبيعية بعض الشيء، وذلك كما جاء في الهاربة، حيث إنها أثبتت بطبيعة الحال تشويهات حقيقية، مثال ذلك وجود فرعون أوالدوق، وفضلا عن ذلك وجود رجل السراي، ولكن وجود الخدم ربما يكون إحدى الحالات النادرة جدا جدا، التي تخفي علينا مثل هذه العادة.

تحتاج سيلسته إلى وقت حتى تتكيف مع الوضع، ففرعونها يتمتع بلطف كبير، لكنه لحوح في طلباته، فبينما كان عند عمه في أوتويل ملّح الخادم فخذ الخاروف سرا بالمملحة التي كانت مخبأة في المعطف

Twitter: @ketab_n

حتى يسيء إلى سمعة الطباخة، لكن هذا الأمر لم يهدد وجودها عند ربة البيت الجديدة، وعلى الرغم من ذلك كان بروست كئيبا، وكان بمقدوره أن يراقبها من السيارة فيما إذا كانت تفتح النوافذ لتهويتها في الوقت المحدد، وقد لاحظ كل شيء حتى إن أودلين لم يبالغ، فعندما حاولت ذات مرة أن تخفي منديلا جديدا في خزانته سرا، أحس بالفرق ومزقه إربا إربا وقال: «هل فهمت الآن يا سيلسته؟ إن المناديل تكون فقط حلوة إذا ما كانت مستهلكة». وقد علمها مرة أخرى أن لا تمسك بالكأس من الداخل، حتى تلك الكأس التي استخدمت حين ترفع عن المائدة، ولذا ترسخت في نفس سيلسته فيما تبقى لها من عمر كل كلمة قالها.

لقد كان حساسا، وكان كل شيء مرسوما بدقة في حياته اليومية، وكان لا يرغب بالتغييرات، وكانت سيلسته تجلس معظم وقتها في المطبخ في شارع هاوسمان ثم في جادة هاميلين وتنتظر، وإذا ما قرع الجرس مرة فإن هذا يعني أنها يجب أن تنظر إليه، وإذا قرع مرتين فإنه يعني أنه يريد قهوته الممزوجة بالحليب، وإن هذه القهوة التي كان على أودلين أن يوفرها من دكان بعينه في الونديسمينت السابع عشر يجب أن تكون طازجة دائما، وذلك وفق ما يتطلبه الطقس المعتاد، وما يحدده الروتين اليومي، لأن المرء لا يعرف على وجه التمام متى يقوم بروست بقرع الجرس للمرة الثانية، الذي يجد القهوة التي تصب على وجه السرعة أو التي تحفظ ساخنة سيئة لا محالة.

Twitter: @ketab_n

ولكونه لا يتناول شيئا بنفسه فلا يهمه أن سيلسته لا تستطيع أن تطبخ، ومن أجل أن يشعر بفرح عظيم فإنها كانت تراوح بين البيض المخفوق والبيض المقلي، وإذا ما حضرت له في بعض الشهور سمك الموسى التي يتناول منها لقمتين، فإن هذا يكون ذروة ما لذ وطاب عنده، فكثيرا ما تستحوذ عليه الرغبة في الساعة الثانية ليلا لتناول زجاجة بيرة باردة، إذ يغادر أودلين إلى ريتز الذي يكون قد أغلق، لكنه دائما يبقي بابا صغيرا مفتوحا للمنسيور روبرت، وإذا ما خرج بروست ذات مرة في الليل، حتى يرى أصدقاءه وليستدعي نموذجا يتذكره، فإن هذا كان بالنسبة لسيلسته فرصة لتقوم بأعمال البيت، فعلى طول اليوم لم يكن يهمها إلا أن توفر له الراحة، فبالإضافة إلى عملها للقهوة كان عليها قبل أي شيء أن تعتني بغسيل ملابسه وما يتصل بعاداته الصحية، فقد اعتاد بروست أن يتجنب أي اتصال مباشر مع الماء، وفي الحقيقة فإنه لا يغتسل، وإنما يمسح جسده بمناشف مبللة، ولهذا كان لا بد من أن تجهز أكواما من المناشف النظيفة كل يوم، ففي الفندق الذي يتكون من خمسين غرفة الذي أدارته لفترة وجيزة بعد موت بروست لم يكن لدى سيلسته غسيل بالقدرالذي كان عندها عندما كانت في جادة هاميلين.

بقيت تسع سنوات سجينته طوع الخاطر. أما كيف تحملت هذا كله عند بروست؟ فإنها لا تستطيع أن تجيب عن هذا بدقة، وعندما كانت في عمر يناهز الثانية والعشرين أملت ذكرياتها حول بروست،

Twitter: @ketab_n

ولكن بسبب حنقها من الأشياء التافهة وبسبب من الخرافات المزيفة، التي علقت بشخصيته في منتصف القرن، فقد كان هذا سحره الذي استسلمت له، وامتزجت بشيء من السحر، ففي الحقيقة فإنها لم تصبر على الحياة مع بروست فقط، إنه كان حظها الخالص الذي ابتسم لها. كان كلاهما أطفالا يحتاجون إلى رعاية، وبينهم تقارب نفسي، ففي بعض الأحيان كانت سيلسته أمه، وفي أحيان أخرى كانت بمثابة ابن له. كان بروست يلاحظ كل شيء ويفهم كل شيء وكان بحاجة إليها. فقد كان جبارا لطيفا مثل الحيوان الذي يكون في الأسطورة. لقد عرفته جليسته أكثر من أي واحد في العالم، فقد كانت تنتظره عندما يعود إلى البيت ليلا، وكانت تنظرعندما يفتح باب المصعد فيما إذا كان المساء قد حمل معه نجاحا ما، ففي كل مرة كان يقدم لها في الختام تقريرا مطولا، ويمثل المشاهد أمامها وهو يضحك، وعرفت متى يريد ومتى لا يريد، وعرفت أن جيد الذي كان مسؤولا عن رفض سوان من كاليمارد لم يقرأ سطرا واحدا من المخطوط: لقد عاد الطرد بنفس رباطه الفني، الذي بذل نيكولاس جهدا كبيرا في تغليفه، وعرفت أيضا أنه لم يكن يشك لحظة في شهرته، فقد طلب منها ذات مرة أن تقدم مذكراتها اليومية، ولكن لم يخطرعلى بالها كم من الناس سيكتبون إليها فيما بعد، فقد استغرق الأمر عند ستندال مائة عام حتى أصبح معروفا، لكن بالنسبة له فقد تطلب الأمر أقل من خمسين عاما، أخفى بروست ابتهاجه بالحصول على جائزة

Twitter: @ketab_n

كونكورت بشكل جيد، لكنه لم يستطع أن يخفي هذا عن سيلسته.

لم يغب عنها كم كان يعمل في هذا الوقت من أجل شهرته وكيف كان هدفه المحدد أن يوقع النقاد المهمين في شباكه، فباول ساودي الذي كتب حوله كتابة تتصف بالفتور، كان قد استدرجه بطرق ملتوية ومحترفة إلى فندق ريتز، ففي المرة الأولى ظل صامدا، لكنه اهتز، وأعلن بروست بعد المرة الثانية النصر عن قناعة، ومن غير أن يرف له جفن أخبرها بروست أيضا عما شاهده في بيت الرذيلة في لي كوزيت، ومن الذي كان يجلد بالجنازير مرة أخرى، أصيبت بالصدمة؟ لكن لأنه يريد أن يصف هذا الشيء، كان عليه للأسف أن يشاهده، وقد كان يظهر حياء مصطنعا، وعلى مدى هذه السنوات كلها لم تر سيلسته شيئا منه سوى وضع يده العارية على وجهه. وبفضل من الله لم يخطر لها على بال ماذا كان يعمل في الشوكات والفئران.

لقد عبدته كإله، ولكنها كانت تنظر إليه نظرة فاحصة ولم يساورها أي وهم حوله، فعرفت أنه لم يحب أحدا في الواقع، وإنما كان يعيش من أجل روايته فقط، التي سمح لأصدقائه أن يعملوا من أجلها، بحيث يكونون نماذج لها. وإذا ما استطاع أن يحقق شخصياته فإنه ينهي عمله مع هذه النماذج. وربما غيرت هذه النماذج جلودها، كما هو الحال عند المذنبين في جحيم دانتي، وعاشوا معتقدين أنهم لا زالوا أصدقاء له، ولكن بالنسبة لبروست فإن وجودهم قد انتهى:

Twitter: @ketab_n

أي من الذي يسأل عن النحلة إذا جمع العسل؟

وبالنسبة لسيلسته فإن الأمر كان مختلفا، فقد كانت حالة استثنائية، وواحدة من القلائل منذ وفاة والدته، إذ لم يستطع بروست الفكاك من الأم الصغيرة، قالت له سيلسته في إحدى الليالي إنها تعاطفت معه لأنها غالبا ما كانت تعتقد إنهما سيتقابلان مرة أخرى عند المحكمة الحديثة في وادي جوزفات، وسألته إذا ما كان يعتقد بهذا؟ لقد أجاب بروست بأنه لا يعرف، لكنه كان بإمكانه أن يقول شيئا واحدا:، إذا ما اطمأن أنه سيرى أمه في وادي جوزفات؟ أو في أي مكان آخر، فإنه يود عندها أن يموت على الفور.

لقد خبر بروست الموت. لم يكن لسيلسته أن تنسى اليوم الثاني الذي لم يطلب منها بروست فيه شيئا، لقد تسللت خفية تمشي على رؤوس أصابعها أمام بابه مصيخة السمع، لكنها لم تسمع أي نفس، لقد ظل كل شيء يوما وليلة صامتا، وعندما قرع بروست الجرس في الساعة الحادية عشرة من اليوم التالي مصفرا ومنهكا، ولم يفصح عن أي شيء، سوى إنه قال جملتين: «إنك أتيت إلى هنا، أليس صحيحا؟»في الوقت الذي كان يشير فيه إلى البابين اللذين أصاخت السمع عندهما، ومن ثم قال وهو يبتسم ابتسامة جادة: «عزيزتي سيلسته، أحسب أننا ربما لن نرى بعضنا إطلاقا ولأجل هذا تعجبت سيلسته ثانية من نظرته الحادة ورهافة إحساسه، لكنها لم تقل له شيئا عن مخاوفها المتعلقة بها.

Twitter: @ketab_n

لن يدور الحديث حول هذين اليومين، لكن سيلسته لم تشك بما حدث، لقد أراد بروست أن يجعل شخصية مهمة تموت ربما أراد ذلك للكاتب بيرغوت، وقد ظل كما كان يتابع مبدأه: إذ يستطيع المرء أن يصف فقط ما الذي شاهده بنفسه. لقد كانت سيلسته واثقة من أن بروست تناول حبوبا منومة بشكل مفرط، لكي يقترب قدر الإمكان من الدرجة التي تجعله يختفي بشكل عميق، حتى يلمس الدرك الأسفل الأسود برؤوس أصابعه.

حينذاك لم يشاهد بروست إلا قليلا، إذ إنه يمكن أن يكون قد غاب عن الأنظار بعد خمس سنوات، وبعد أن تم حفل الافتتاح بعد البروفة الأخيرة كانت حياة سيلسته ألبيرت قد انتهت أيضا، وقدمت اعترافاتها في الكتاب الوحيد الذي دار حول المنسيور بروست، وتفوق هذا الكتاب على «البحث» في الجمال النفسي.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

أحلام الداتورة والموت

في مساء السابع عشر من نوفمبر عام 1922 قال بروست لسيلسته إنه إذا عاش هذه الليلة فإنه سيثبت للأطباء أنه أقوى منهم، ومن بين هؤلاء الأطباء كان أخوه روبرت الذي توسل لمارسيل من أجل أن يعالج في مشفى ما، مما حدا بمارسيل منعه من دخول البيت.

لقد كان بروست دائما ذلك الشيء الذي يسمى في فرنسا برأس الهولز، فعلى مدى حياته ظل بروست يراوغ بلباقة، وفي نهاية مرضه تكشفت هذه المراوغة وسببت اليأس أو الشك لأصدقائه، لكن بروست المعذب لديه أسباب لهذه المراوغة التي تعود إلى زمن بعيد حتى إلى ما قبل ولادته.

ومن زاوية نظر الأدب فإن حياته كانت حسنة الطالع، أما من زاوية أخرى فقد كانت سيئة الطالع، ففي القرن التاسع عشر كله لم يستطع المرء أن يجد تسعة شهور درامية مثل تلك التي نما فيها بروست في بطن أمه، فقد تزامنت ولادته مع خسارة فرنسا للحرب في ألمانيا بعد معركة سيدان، فمنذ سبتمبر 1870 حوصرت باريس من الجيش البروسي وكانت هدفا للقصف، وحوصرت العاصمة وقطعت عنها الإمدادات، وأوشكت المجاعة على الوقوع، وكان الأغنياء يأكلون البقر الوحشي والكنغر التي يأتون بها من حديقة الحيوانات، أما الفقراء فكانوا يقتاتون على لحوم القطط، ولم يعد هناك شموع ولا تدفئة، وكان الشتاء باردا جدا، وإن جينيه فايل التي تنحدر من عائلة

Twitter: @ketab_n

يهودية ثرية وكانت قد تزوجت للتو من الطبيب الطموح جدا أدرين بروست كان وزنها قد نقص في الشهور الأولى من الحمل.

في الثامن عشر من يناير1861 استسلمت باريس، وفي مارس حدثت انتفاضة الشيوعيين الاشتراكيين، وتولت حكومة الثورة السلطة، ووقعت بعد ذلك الحرب الأهلية الأكثر دموية في التاريخ الحديث، بحيث دب فزع يفوق الوصف في أثناء هذه الحرب، فقد كبس الأسرى بين ألواح الخشب ونشروا بالمناشيروهم أحياء، وشبت النار في باريس بحيث يستطيع المرء أن يراها من على بعد بعضة كيلومترات، وانفجرت القنابل في كل مكان منها. عاشت مدام بروست في خوف دائم على أبيها وأخيها وزوجها، وعندما احتفلت في نيسان بعيد ميلادها الثاني والعشرين كان نصف سكان المدينة يحاولون أن يهربوا منها.

وبينما كانت أدرين بروست في طريقها إلى العمل كادت رصاصة أطلقها أحد المنتفضين أن تصيبها.

وعندما قمعت الفرق المدنية التي شكلت حديثا الانتفاضة بطريقة وحشية في مايو، قتل فيما يسمى بالأسبوع الدموي وحده خمسة وعشرون ألف شخص. في العاشر من يوليو ولد مارسيل بروست في الساعة الحادية عشرة في ضاحية أوتويل حيث فرت العائلة إليها، وأن الصبي الذي (ينتمي إلى برج السرطان وبرج الحمل) كاد يموت أثناء الولاده، وقد غدا عليلا ومحتاجا للرعاية. كانت تنتاب مارسيل

Twitter: @ketab_n

ليلاً مخاوف مرضية قوية وحادة، وكان يغرق في كل مساء في حزن عميق، فهو واهن وشديد الحساسية ومدلل، بحيث أصيب أبوه بالرعب. وقبل أن يذهب في النزهات في فصل الشتاء كانت أمه تضع له البطاطا الساخنة التي أعدتها الخادمة في قطعة من الفرو.

إن المرض الذي رافقه طيلة حياته جعله يبدو وكأنه ابن تسع سنوات، لقد أصابته نوبة الربو الأولى عندما كان في نزهة في بيوس دي بولوجون، وكانت نوبة سيئة جعلت المنسيور بروست يعتقد أنه لن يعمر طويلا. لم يفارقه الفزع ابتداء من هذه اللحظة، فهو لم يستطع أن يركض وأن يلعب مع أقرانه، ولجأ إلى مراقبة الآخرين مراقبة تنم عن الحسد، وإن هذه المراقبة المليئة بالحسد – كما سيبين لسيلسته – كانت منشأ أدبه بشكل كامل، لقد تعلق بأمه بشكل عنيف، تلك الأم التي دللته بحنانها الرائع، وإذا ما كان قد أخفى عن أمه شذوذه الجنسي (الذي امتلك نصيبا في إجهاد ما قبل الولادة)، فإنه يعرف أنها كانت تحس بهذا الشذوذ، وعرف أيضا كم كان مرضه مهما بوصفه رابطا أو بوصفه مادة لاصقة بالنسبة للشرنقة، وأوضح بروست لأمه أنه يفضل أن تنتابه أزمة الربو وتظل أمه معجبة به على أن تنتابه الأزمة وتكون مستاءة، تلك الأم التي كانت تتمنى له الأحسن دائما، وكادت تقضي عليه بحبها له.

اختلط العضوي بالنفسي في رحلته مع المرض بشكل وثيق، فقد سئم أصدقاؤه من شكواه المستمرة، وقد تبين له شيء مثير للقلق، فإذا

Twitter: @ketab_n

لم يرد الموت، فينبغي عليه على الأقل أن يتوقف عن التألم، حتى إن أصدقاءه حسبوا أن بروست راع يصرخ من الذئب على الرغم من أن كل شيء كان يبدو آمنا. عندما مات بروست حقيقة حصلت المفاجأة الكبرى.

وفي الواقع – كما لم تفصح سيلسته عن ذلك – فإنه اتخذ المرض كذريعة تماما، حتى لا يستقبل أحدا ولا يرد على الرسائل، لكنه لم يكن ليتظاهر بالمرض، أو أنه مريض بالوهم، ففي النهاية فقد شك في كل عضو من أعضاء جسده، حتى إنه شك أن هذا العضو أو ذاك يبيت له شيئا ما، فقد وجد الطبيب في فحص ما بعد الولادة أنه يعاني عما لا يقل عن ثلاثين مرضا، التي كان على بروست أن يعجب بحرقتها وتقرحاتها.

وإن الضرر الأساسي كان يتمثل بالربو دائما، ومن وجهة نظر حديثة – التي يجب أن لا نتاولها بشكل عميق – فإن الربو لم يجر بشكل غير مميز، فعندما شعر بروست بالوهن طور في السنوات التي خلت مضادا جسديا ضد بعض أنواع محددة من الحساسية، مثل: حبوب اللقاح وغبار البيت، والعفن، وقد سببت هذه الحساسية تشنجات والتهابات الشعب الهوائية، وربما تكون قد ازدادت من خلال الصدمات النفسية التي أعادها بعض مؤلفي سيرة بروست إلى الغيرة من ولادة أخيه.

أما كيف يمتزج النفسي بالكيميائي فقد تجلى هذا عندما وصف

Twitter: @ketab_n

بروست نفسه في فقرة من الفقرات كيف أن مارسيل تمشى مع فرانسوا إلى الشانزليزيه، حيث قابل صديقته جيلبيرت، وعرف منها أن رسالة الإجلال الطويلة التي كتبها إلى أبيها سوان استقبلت بفتور وأهينت، واصطحب مارسيل فرانسوا إلى الحمامات الرطبة وتذكر رائحة العفن – أي الحساسية التي خبرها من قبل، وبعد ذلك كانت له مغامرة جنسية مع جيلبيرت جرت خلف إحدى أيكات الغابة، ومن ثم عاد إلى البيت وأصيب بقشعريرة ونوبة من نوبات الربو.

لم يكن بروست يعرف بعد عن تأثير العفن المسبب للربو، ولكنه عرف في مطلع القرن الأساس المميز للحساسية، كالاستعارة التي جاءت في البحث كشاهد على هذا، وعلى الرغم من تقدم الطب فقد احتفظ بروست طيلة حياته بالعلاجات المعهودة، احتفظ بها في البداية عن طريق أبيه، وفيما بعد عن طريق أصدقاء داودت ومدام ستراوس. بنى بروست علاقة مع فطاحل طب الأعصاب جميعهم، ويبدو أن طبيبا واحدا ساعده في مرضه، ولعل بروست ساعد جسده أقل مما ساعد فنه.

وقد أغرى باول سولير تلميذ جاركوت الذي يكاد ينسى اليوم بروست بعد موت أمه في شتاء 1905 أن يبقى في المصح مدة ستة أسابيع، وتمثل علاجه بالعزل الكلي الذي خفف في النهاية بعض الشيء، وصرف سولير وقتا طويلا على المرضى الذين استسلموا للحزن، وقد توقف بروست عن المعالجة الوحيدة في حياته بشكل كامل تقريبا،

Twitter: @ketab_n

فالمعالجة لم تشف الربو بالطبع، لكن يمكن أن يكون علاجه قد تجسد بسولير الذي فتح لبروست القلب الشاعري للبحث.

لقد كان سوليرعالما دقيقا وناقدا لبرجسون، وألف دراسة حول مسألة الذكرى، بحيث أن طريقته في الاستشفاء استنبطت من هذه الدراسة، إذ وصف سولير هذه الطريقة في بعض جمل يستشعر المرء عند قراءتها أنه يمتلك إحساسا قبليا (وكأنه عاش الأحداث من قبل)، وبالمعنى الحرفي تقريبا فإن هذه الجمل قد سبقت ما يشبه الذكرى اللاإرادية التي تستجلب البحث عن الزمن الضائع، وقد هدف الطبيب في معالجته إلى اللحظة التطهيرية التي لم يستحضر فيها الماضي بوصفه صورة واعية وحسب، وإنما أحيي بشكل وجداني. وشعر المريض بالوضوح والحدة أنه خارق، كما لو كانت شخصيته كلها فاعلة بشكل مستمرمن خلال الزمن، وأنه يعيش في الحاضر ما عاشه في الماضي.

لم تكن المادلين (الحلوى) في الحسبان عندما دعا سولير بروست إلى جلسة علاجية، لكن طريقته في العلاج التي كانت مثار عجب، اتضحت لبروست فيما بعد – وهي الاعتماد على موتيف لحظة الحظ التطهيرية التي تشتمل على الزمن الماضي، بحيث إن الموت فقد معناه وأن وهم الزمن ذهب أدراج الرياح. وإذا ما كفه الدكتور سوليرعن العمل فإن هذا يجسد وضعا استثنائيا، ويفضي هذا إلى معاينة الأمر في صورة مختلفة، وبهذا يكون الأطباء الذين لم يشفوا بروست قد

Twitter: @ketab_n

أسهموا من خلال وسائل المراوغة والسخرية والإساءة في إنجاح رواية البحث عن الزمن الضائع: فبوصفه رجلا ذكيا (ولكن المرء لا يكاد يحسبه كذلك)، فإنه لم يكن محتاجا إلى أن ينغمس كليا في عالم الفن لكي يعيد بناء العالم الذي أضاعه إلى الأبد.

كان أبوه أول شخص لم يساعده، وكان على بروست أن يتقيد بتعليمات الأب الصحية، وذلك لأن مشكلته تتمثل بما يسمى بمرض عصبي المنشأ- وهو مرض العصر أو مرض الموضة في هذا الوقت -وسمم نفسه لأنه كان فاقدا للأمل، وإن الإفراط في رعاية الأم له لم يكن خافيا أيضا، وكان من المفروض أيضا ألا تذكرعواقب استنزاف الأعصاب لذلك النشاط الذي مارسه بروست في الحمام المعطر بالليلك؟ وعلينا أن نتذكر الثلاثة عشر فرنكا.

لم يقرأ بروست والده الذي كان رائدا في مكافحة الكوليرا فقط، وإنما كان ينظر إليه نظرة التقديس، لقد عرف المراجع الطبية كلها، ولم يأخذ منها شيئا خاطئا، وإن دليله المهم هو الخبير لينوسير، ففي دراسته حول؟ ما قرأ بروست مرات ومرات، فقد دار كل شيء حول الأفكار الراسخة عن الهضم والتسمم، وفيما بعد جاء ادوارد بريساود المشهور والتلميذ المفضل لجاركوت، وقد قدر بروست له ذكاءه لكنه نظر إليه على أنه طبيب فقير يصف لمرضاه حبوب المنوم تريونال دائما وأبدا، وظهر في الرواية بوصفه شخصية كوميدية للدكتوربولبون، وإذا ما أراد بروست أن يجعله مثار سخرية أيضا،

Twitter: @ketab_n

فإنه لم يسلم من تنبؤاته.

ووفق بريساود فإن الربو كان مرضا عصبيا ينهي حياة المريض بهلاك محتم، وناقش في الفصل قبل الأخير في دراسته عن الربو ما يعرف بدنف الربو، وإن الإعياء أسهم في موت بروست المبكر، وبالمثل فإن هذا الإعياء كان نتيجة للقراءات الخاطئة والتسمم الموهوم، وإن مسار الحدث حتى اليوم لم يكن شيئا عاديا. بعد نوبة من نوبات الربو تساءل المريض عن الطعام الذي سبق له وأن تناوله، وحذف مجموعة من الأطعمة من جدول الطعام، وهكذا دواليك حتى انتهى إلى القهوة والحليب، اللذين كان بروست يستهلكهما بشكل رئيسي في السنوات الأخيرة. في النهاية تحقق كل شيء تنبأ به بريساود، الذي ربما لولاه ولولا الزملاء لما وصل بروست إلى ما وصل إليه.

في يوم من الأيام جرب بروست كل النظريات والنظريات المضادة، وكان في كل مرة أكثر شكا، وفي النهاية لم يعد يؤمن بالأطباء إطلاقا، لقد طمأنوه، لكن نصيحتهم لم تفض إلى أي شيء، فعدم تقيده بتعليمات طبيب العائلة الدكتور بييز قد أدخل سرورا عظيما على نفسه، ومن دون أن يعرف فقد جانبه الصواب في كل شيء. حبس نفسه في غرفته الرطبة والباردة جدا التي تقع في جادة هاميلن، ولم يجدد هواء الغرفة وأمضى الليل والنهار في السرير وفي مركز تجمع عث الغبار الذي لم يكن غير معروف آنذاك، لقد عشعش المرض في جسده وعاش كما يعيش الملوك. وإن الشيء الوحيد الذي

Twitter: @ketab_n

ظل يساعده ومكنه من التنفس هي المباخر التي كانت تعد يوميا، وكان الموقف منها مختلفا أيضا عما يعرفه المرء منذ زمن طويل.

بداية دخن بروست الدواء مع السجائر، حتى يسرع في احتراق المسحوق الذي لا يخالطه شيء، وزعم أن رائحة الأوراق المحترقة كانت تسبب له إزعاجا، لكن السبب الحقيقي يكمن في أنه كان يستنشق يوما بعد يوم الجرعة التي وصفها الطبيب له، وفي استعماله لهذا العلاج لم يكن بروست يتجنب التأثيرات السامة، وبالمقارنة مع الأدوية المتداولة في أيامنا هذه، فإن مسحوق الربو قد منع من التداول عام 1922، وكأن هذا المسحوق قد ارتكب جريمة أدت إلى موت بروست، – فهو دواء ليس ذا جودة عالية، ولا يستطيع أن يخفف من إلتهاب الشعب الهوائية، وله تأثيرات جانبية مثل الهلوسة التي عرفت منذ العصور القديمة: فالداتورة هي دواء موجود في الدلفي (عشب جميل الزهر أزرق اللون) الذي يسهم في عملية التنبؤ.

أصبح بروست مدمنا، واستخدم دواء لويس ليغراس الذي يحتوي على تركيز عال لنبات الداتورة. وقد ذكر في رسائله بشيء من التفصيل عن الأعراض المشهورة الناتجة عن الداتورة التي تسبب التسمم، وهذه الأعراض هي: الاختلال في الزمان والمكان، ونوبات الفزع، واتساع حدقة العين وخلل في الإبصار، ودقات في القلب، وضعف في العضلات، وربما يؤدي الداتورة إلى الشلل، وقد كتب بروست نفسه عن حالات التسمم التي تنتج عن المسحوق، وكتب

Twitter: @ketab_n

أيضا عن الهلوسات وعن المرأة السوداء السمينة، التي سببت له الفزع قبل موته بقليل، ويبدو أن هذه الأشياء قد نتجت عن الداتورة، وإن انتشار الداتورة الذي انحسر له علاقة بوجوم الوجوه التي انتجتها.

وقد تنبأ بريساود لبروست بأنه سيظل يسيئ استخدام الداتورة، وإن التحسن الذي نتج عن هذا الدواء دفع المريض بالربو إلى أن يزيد الجرعة، ولذا فقد أصبح عبدا لالآمه العصية على العلاج، بحيث إن بروست لم ينج من هذه العبودية.

لقد ولدت البكتيريا التي كان يخشاها بروست الهزال والبنية الضعيفة الناتجة عن الربو في خريف 1922، وقد قال لسيلسته منذ مدة أن شعبه الهوائية صارت وكأنها مصنوعة من المطاط المغلي، وعندما عرف من أخيه أنه يعاني من المكورات الرئوية، فقد استحصل على معلومات طبية أخفاها عن أخيه، عرف من خلالها أنه لا يعيش في خطر مرة أخرى، إذ كتب له جاك أن أربعين بالمائة من هذه الحالات ليس خطيرا تماما. تأمل بروست قبل موته بيومين في كتابة غير واضحة ولا يستطيع المرء أن يفك رموزها جاءت في رسالة لطيفة للقساوسة الريفيين، الذين كانوا يعتقدون أن كل ميكروب ما هو إلا علامة على الصحة.لم تبق عودة الحالات الخطيرة من الستين بالمائة خافية على بروست لوقت طويل، ولكون مرضه لم يظل خافيا عنه، فقد نبه إلى عنصر الاستعارة الذي وضعه في ليالي نوفمبر هذه في الجزء المتعلق بـ« الهاربة».فإذا أوشك شاعر أن يموت بسبب الالتهاب

Twitter: @ketab_n

الرئوي البكتيري فإن المرء يتخيل كيف يقف أصدقاؤه من المكورات الرئوية، فهذا الرجل موهبة وينبغي عليهم أن يتوسلوا من أجله حتى يعود سليما معافى.

رفضت البكتيريا الكروية أية مفاوضات، وبعد الليلة التي أراد أن يثبت فيها للأطباء مرة أخرى أنه أقوى منهم توفي بروست في الساعة الرابعة والنصف من مساء يوم السبت، عزيزا ودون أن يرتجف، وذلك بسبب الالتهاب الرئوي وضيق التنفس والعفونة والسأم، بسبب الربو الذي ندين له في إنجاز هذه الرواية التي لن ينال منها العث على الرغم من كل مجهود يبذله.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الهليون مع التشققات

عندما يقرأ المرء بروست للمرة الأولى فإنه يضع خطوطا تحت المواضع المشهورة دون أن يعرف عن شهرتها مثل: الليلك، والزعرور وعبير الإريس الغامض، التي تتأرجح أماكنها بين أبراج الكنائس وفيلا القديس يوحنا وسقف القرميد الذي يشع باللون الأحمر، بحيث إن السارد عندما يشاهدها لا يملك إلا أن يصيح قائلا:«اللعنة، اللعنة» وبالطبع فإنه يضع خطا تحت حلوى «المادلين» وسوناتة فانتويل، وتحت مشهد قبلة تصبحين على خير، وأجراس الدير التي يحجبها صخب النهار التي تعود وتتسلل إلىالأذنين عند المساء، بحيث إن بروست الشاب الخبير لا يستطيع أن يستمر في السرد دون أن يجهش بصوت مرتفع.

فيما بعد يصادف المرء مواضع أخرى أقل كلاسيكية. إذا كان بروست إلها، فإن الآلهة الصغار يبدون إلى جانبه وكأنهم أقزام، فهو بالتأكيد ليس إلها قويا قادرا على إنزال العقاب، وإنما هو إلاه يدعو إلى السخرية، إن بروست هو المؤلف الأكثر سخرية في الأدب العالمي، لكن هذا الأمر لم يكن عفو الخاطر دائما، إذ يتذكر المرء ترجمته لراسكين التي استغرقت منه سنوات طويلة، فعلى الرغم من إشراف الأصدقاء والأسرة في بعض مواطن الترجمة فقد بدا أن ثمة ضعفا في لغته الإنجليزية، إذ إنه ترجم «شهرين» بـ «زوجين على الأقل» أي

Twitter: @ketab_n

بشيء دال على الحب.

وتتمثل بعض الجوانب المثيرة للسخرية عنده بالعيش المشترك لصفتين متناقضتين في الأصل، فكما لاحظت إحدى تلميذاته فإن خبرته تتأسس على الجمع بين رقة الإحساس والعناد الظاهرين، «إنه عنيد كمصران الهرة»، وكتبت فرجينيا وولف في مذكراتها «إنه سطحي كالغبار الملون على جناح الفراشة»، وقد اقتفى بروست الحبيبات الأخيرة الموجودة على جناح الفراشة، وهذه حقيقة، وفي الوقت نفسه فإن أستاذ الفحص المجهري صديق للمبالغة المفرطة.

وفي الجزء المتعلق بـ«الهاربة» عكف الساردعلى انفصاله عن ألبرتين، وعن الألم الناتج عن هذا الانفصال، وأدرك أنه سوف يتخلى في النهاية عما وطن نفسه عليه، وكاد يصاب بالفزع عندما أخذ على حين غرة، إذ كيف له أن يشاهد لحظات التهدئة الممتعة، وأدرك أن في هذه التهدئة إشارة تحذيرية وأول تجل لتلك القوة الخارقة، التي تهيأت له ليكافح الألم والحب اللذين سينتصر عليهما في النهاية، فحبه هو عدوه الوحيد الذي يستطيع أن يتغلب عليه بالنسيان، بدأ بروست يرتجف «مثل الأسد الموجود في القفص، الذي حبس فيه، وفجأة رأى ثعبانا كبيرا يريد أن يبتلعه»، ويمكن للمرء أن يدون على الهامش بعدم وجود إفراط في المبالغة، وأن يجد في لهوه في النسخة الأولى، أن الأسد لم يزل جاموسا.

لقد مال بروست إلى التشبيهات الجريئة التي سخَّر لها الحيوانات

Twitter: @ketab_n

أيضا في مراسلاته، فكتب إلى لوسيان داود حول الآراء الأدبية، التي اتفق فيها مع والده ألفونسو مضيفاً: فإذا ما جاز للمرء أن يشبه دودة المطر مع الهمالايا، فهو في بعض الأحيان يحب التملق البسيط. لكن السخرية الموجهة لبروست لا تتمثل في المبالغات والإغراقات والمغالاة الرائعة فقط، وإنما تلك المبالغات البسيطة غير المفرطة. عندما يعيد المرء قراءة مشهد المساء في الأدب العالمي الذي حظي فيه بروست بليلة استثنائية مع أمه، فإن المرء يتعجب من الظرف الزماني: فبينما كان الطفل في الطابق الأول ينتظر والديه بفزع، فإنهما كانا يحتاجان بعض الوقت حتى يصعدا السلم، فالأم المسكينة كان لا بد لها أن تصعده زحفا، حتى تملأ وقتها، فالدقيقة ربما تمر سريعا، لكنها ربما تكون طويلة، وثمة مثال آخر جرى عندما كان بروست فيه جنديا، فقد قابل سانيت – لوب، الذي كان يجلس في عربة وحياه تحية عسكرية، بحيث أبقى يده إلى جانب القبعة العسكرية لمدة دقيقتين، ولا ينبغي للمرء أن يتصور مثل هذا الأمر بالدقة نفسها تماما: فحتى لو كان مارسيل الغادي والرائح قد ركض معهم، فمن المفروض أن يكون سانيت – لوب قد اختفى لمدة دقيقتين عن الأنظار، فهل ينبغي علينا أن نعتقد اعتقادا جازما أن فرانسوا قدعكف على قراءةمقالات طبية مدة ساعتين في منتصف الليل على الرغم من مشاغله الملحة؟ أو أن الغريب الذي أرشد مارسيل إلى الطريق، كان عليه أن يشاهده منهمكا طوال ساعة كاملة في معاينة كنيسة ما؟

Twitter: @ketab_n

لم تختلط وحدات القياس عند بروست زمانيا فقط، وإنما مكانيا أيضا، ففي مشهد أساسي من كومبريه تجول الشاب مارسيل باتجاه مونتجوفيان، ونام على ربوة أمام بيت فينتويل. وعندما نهض من نومه أصبح شاهدا على طقس سحاقي جرى في داخل البيت المضاء، فمن خلال النافذة التي فتح نصفها لم يستطع أن يعرف نوع قماش البلوزة التي ترتديها ابنة فينتويل فقط، وإنما عرف شيئا صغيرا أيضا وهو صورة أبيها الصغيرة المتسخة من البصاق بقصد الإهانة، وقد أندهش لأنه تمكن من أن يشاهد كل هذا على نحو دقيق، إذ لم يكن بعيدا عن النافذة سوى سنتيمترات قليلة، وإذا لم تكن الربوة في الحقيقة لا ترتفع أمام سور البيت سوى سنتيمترات قليلة فقط، فإن السيدة فينتويل لا تستطيع أن تفتح النافذة، لذلك فإن المعلومة لايمكن أن تصدق.

وتمتلك المبالغات التي يخالطها شيء من الغموض بعضا من السخرية، لأنها جاءت في تعارض واضح مع الحذلقة، التي من خلالها قسم بروست أشياء ساذجة في إمكانيات كثيرة، بحيث إن المرء في نهاية الأمر يتعرض إلى زغللة العيون، ويبرز مثال مشهد المراقب المتخفي، كيف تنشأ المبالغة قليلة الغموض تحت إلحاح الحبكة: لا يوجد في «البحث » سارد عليم، لذلك كان على بروست أن يضايق بنت فينتويل من مكان قريب، حتى يستطيع أن يشاهد عن كثب ذلك الشيء الذي كان عليه أن يكتبه ذات مرة عن الجسد، وقد تولدت بعض

Twitter: @ketab_n

المبالغات الأخرى قليلة الغموض بسبب من حشر الحبكة. إن المشكلة الصغيرة في «البحث» تكمن في أن السارد كان لا بد له أن يبتعد عن مجرى الزمن، وكان على بروست أن يبعد إلى جزيرة صغيرة، وذلك من أجل أن يعود بعد مدة طويلة مناسبة إلى العالم وحتى يستطيع أن يفوز بإدراك الحفلة التنكرية للكوميديا الإنسانية، لقد حل بروست المشكلة بأن أوصل مارسيل إلى المصح، لكنه لم يروما حدث هناك، وكل ما نعرفه فقط يتمثل في قوله: «لقد مضت سنوات كثيرة حتى غادرت المصح».

لم يأت أي فراغ فني كما أتت الفجوة الزمانية المشهورة في التربية العاطفية لفلوبير، على الرغم من أن لهذا الفراغ التأثير نفسه، كما أنه بنى البناء نفسه كما هوالحال عند فلوبير، وهذا ما هوإلا ارتباك سردي، وليس من العجيب إذا ما أدخلت بعض الصور من الإيقاع في هذه الفجوات الزمنية، فقد التفت أولوف لاغركرانتز الذي قرأ بروست إلى أن هناك شيئا ليس صحيحا يتصل بوالدة مارسيل، فتارة تكون موجودة وتارة ترتحل لمدة طويلة دون مبرر، ومن ثم تعود وتجلس في الشقة مثل المومياء. والسبب في ذلك يكمن في أن السيرة تختلط بالقص ويغلفها الغموض، فالأم الحقيقية ماتت، وإن موتها لم يكن السبب الحقيقي على الإطلاق لولادة «البحث»، ولأجل هذا فإن والدة مارسيل غدت في الرواية إنسانا كتب له الخلود.

تماما في هذه النقطة بالذات تحولت السخرية في هذه المبالغات قليلة

Twitter: @ketab_n

الغموض إلى عنصر فعال. وقد حدث هذا عندما لم يتمكن بروست أن يقص لأسباب تعود إلى العرف ما أراد أن يقصه في الحقيقة، فلا يجوز له أن يكون ألبرت أوأن يكون ألفريد الذي يحبه مارسيل، وظل بروست يرتجف حتى نهاية حياته – كالأسد أمام الثعبان – خوفا من أن تذاع أسراره من خلال القيل والقال والخيانة، فقد بذل في رسائله جهدا خارقا، لكي يستنكر أي ظهور للكلمة الفاحشة التي شاعت بين أصدقائه، وإن ما يخصه ويخص حقيقة علاقاته في الحب، ينطبق على شعار البرقيات التي راعى روبرت دي سانيت من خلالها أن يعتذر لزوجته بشكل عابر: «من المستحيل أن آتي، الكذب سيأتي لاحقا».

نتج هذا الخلط عن الإلحاح على الحقيقة والاضطرار إلى الكذب، الذي يلاحظه المرء في «البحث» من كونه ساخرا ومؤثرا في الغالب، إذ تراكمت الأسباب الواهية أول ما تراكمت في الجزء الأخيرالذي لم يستطع بروست أن يصوغه بعناية، ولا بد أن يكون بروست بريئا من كونه خالق هذا الجزء الذي يستدل منه على تناقض بسيط. لقد عثرت قدما بروست ببيت دعارة الرجال وعده في البداية لسذاجته على أنه شبكة تجسس، لكنه عرف بعد صفحة أو صفحتين كل شيء، فقد تعرف على الزبائن، والعلاقات المميزة والقوانين كلها وخلاصة المبادئ، التي لا يتطلب تأليفها ساعة واحدة، وإنما يتطلب سنوات. فمثلما أثبت لوزيوس كيلير فإن بروست أخطأ في رقم الغرفة ذات

Twitter: @ketab_n

مرة وأسكن مارسيل الذي جاء بالصدفة في حجرة الخطيئة الحقيقية حيث تخبط كارلوس الشهواني بدمه.

إن السنتيميترات بدلا من الأمتار التي فصلت المراقب المتخفي عن الفتاة السحاقية كانت كذبة بسيطة، احتاجها بروست من أجل أن يمرر حقيقته الكبيرة.فبوصفه صبيا حزينا على أمه فقد عكس ما في نفسه على ابنة فينتويل التي اهتمت من خلال صورة الأب المتوفى بطقس مدنس ينبغي ألا يكون غريبا عن بروست، فإن المثلية الجنسية لها ثمنها بشكل دائم، ولنأخذ مثالا على ذلك وصيفة السيدة بوتباس مرة أخرى، فكما يقال فإن بروست كان يبحث عنها، وهي التي كانت على النقيض من ذلك تتظاهر بأنها مطيعة للرجال، ومن ناحية أخرى شك في حبيبته ألبرتين شكا جارفا، من أنها تمنح حظوتها لنساء أخريات، فلماذا كان ذا تفكير نزق، فتلك الوصيفة التي توقع الرجال في شباكها كان بإمكانها أن تغوي ألبرتين في بالبيك؟

وعلى المستوى الظاهري للحدث، فإن هذا شيء غامض ويمكن فك غموضه عندما نضع كلتي المرأتين في دائرة الشذوذ الجنسي، الذي كان في الأصل، وإن الهراء الذي يخفي وراءه معنى حقيقيا تجسد في نصف الجملة التي ندت عن ألبرتين بعد خصام مع مارسيل، تلك الجملة التي صدمته بشكل عميق: فقد آثرت بشكل كبير أن تستخدم التعبير العامي «كسر الجرة» الذي يدل على سلوك جنسي ما، وهو سلوك نسب لغويا إلى السدوميين وليس إلى العموريين.

Twitter: @ketab_n

لقد تطلبت رواية – ألبرتين غلالة من أجل التعمية، التي أوقعت بروست في الاضطراب المرة تلو المرة في أقواله، ففي الغالب فإن السخرية توجد على وجه التقريب عندما يبحث مارسيل في الأماكن السياحية بشكل مدهش عن الفتيات اللواتي يصطدن السمك، كما لو كان العنصر الأنثوي هو الغالب في ممارسة الصيد، وفي الغالب فإن ثمة شيئا غير موثوق، فمؤخرة عنق ألبرتين الضخمة جدا كانت قد اشتهرت إلى درجة الملل. لكن الأقل شهرة يتمثل في تذكر السارد لذلك اليوم الذي تركته فيه ألبرتين يقبلها للمرة الأولى، وتذكر أنه تبسم شاكرا للشخصية اللعوب والمخادعة التي أحدثت تغييرا جذريا في شخصية ألبرتين، وسهلت له مهمته إلى هذا الحد. لكن ما هو التغيير الجذري، إذا لم يكن تغييرا في جعل الجنس شيئا مفضلا على الأشياء الأخرى. إن ألبرت الذي كان لا بد له أن يفتن بحب الرجال هو التفسير المناسب والوحيد لشكر مارسيل له.

إن المبالغات الساخرة وذات الغموض القليل التي لا تتواءم مطلقا حتى مع كيلشيهات بروست كانت هي الوحيدة، وإن تلك الفجوة التي جاءت في النص وتشير إلى العفونات التكتونية هي عبارة عن شيء آخر، فهي تمتلك طبيعة تراجيدية.إن بروست نفسه كان قد أدرك بشكل تام هذه التراجيديا التي تولدت من خلال الاضطرار إلى الكذب مدى الحياة، يقول: «إذا لم أعتقد أن ألبرتين كانت مذنبة إطلاقا» فإن هذا يجعله يتفكر في مارسيل الذي اهتدى إلى الصواب

Twitter: @ketab_n

فيما بعد، لأجل هذا فإنني لم أطمع في الحاجة إلى الشهوة القائمة على المعاناة. إن الاعتقاد ينشأ من الأمنيات، وإذا لم ندرك ذلك بشكل عام، فإن ذلك يرجع إلى أن معظم الأمنيات القائمة على الاعتقاد – ولكن على النقيض من الشيء الذي جعلني أظن أن ألبرتين بريئة – تنتهي معنا بالذات (...). إن الكذب بالنسبة للناس شيء حتمي كليا، إنه يلعب عندهم الدور نفسه كما يلعب الطمع بالرغبة، ومن ثم فإن الرغبة تحدد الكذب من خلال هذا الطمع فيما بعد. إن الإنسان يكذب حتى يحقق الرغبة أو ليحمي مجده، وخاصة عندما يتعارض ذيوع الرغبة مع المجد، إن الإنسان يكذب طوال حياته، وربما يكذب أحد الأشخاص حتى على الناس الذين يحبونه أيضا.

إن هذا هو الخلاصة الحزينة لرواية لم تنشأ وفق المعلومات الهامشية التي توافرت لمبدعها، لأن الاشتغال على عمل فني يصرف التفكيرعن الطرق التي تقود إلى الخطيئة، وعلى الرغم من أن هذا العمل الفني أو لأنه خاضع لسيطرة الغريزة التي تثير كل هذا الصخب، فإنه يمثل انطباعا يصعب على المرء رفضه عند إعادة القراءة.وسيذكر المرء في هذا المقام أن بروست كان تلميذا لديكارت أكثرمما كان لشوبنهاور. فكما هو الحال عند شوبنهاور فإن عالم «البحث» قد تأسس من خلال قوة الغريزة والمشيئة بشكل خارق.وكما هو عند شوبنهاور فإن الموتيف الجوهري للحظة عندما نكشف عن غطاء الماجا ما هو إلا خيبة الأمل. فعندما عاد بروست من المصح ولم يعرف أصدقاءه

Twitter: @ketab_n

القدامى، لأن الزمن قد صبغ شعورهم باللون الأبيض، وأنعم عليهم بأنوف حمراء كبيرة، إن هذا مثل تلك اللحظة، وقد وجدت مثل هذه اللحظات في كومبريه. فعلى سبيل المثال المشهد القصير الذي أظهر فيه بروست بطولة لا يسبر غورها، إذ جعل أضواء فنه تلمع في قطعة واحدة.

نحن في المكان الذي يقضي فيه بروست إجازته في كومبريه. تراقب العمة ليونه من النافذة السيدة إيمبر وهي لتوها تحمل الهليون إلى البيت، فالهليون سميك بحيث يشكل ضعفي ما عند ميريه كالوت. أوعزت ليونه إلى فرانسوا لتستعلم عن مصدر هذا الهليون السميك، وإن ما قدمته فرانسوا للتو من طعام قد خدم السارد في قطعة من أروع قطعه في فن الوصف، إذ يبدو الهليون قد غمس بخليط من الألوان، وإن سنابله الزرقاء السماوية التي مزجت بدقة متناهية مع البنفسج الغض، قد غدت أكثر اصفرارا حتى سيقانها، وكانت ذات طبقات ليلكية متدرجة غير ملحوظة، أي «لم يلتصق بها شيء دنيوي».

إن هذا – من دون إغفال الاسم – صورة عابرة للهليون المشهور عند مانيه، فلذة هذا الطعام الرائع أدت إلى ذروة ثانية للفن، وعندما أكل منها في المساء عرف مارسيل الهليون في الفانتازيا التي جعلت من الهليون مجرد دعابة، وذلك عندما حولت مبولته إلى إناء عطري، وفق أسلوب القطع الخرافية عند شكسبير التي جاءت شعرية ومتعددة الدلالة.

Twitter: @ketab_n

إن الهليون السميك لم يرتكب ذنبا حتى الآن، وإنما قاد إلى فضيحة كبيرة، أي إلى أول إحباط للرواية، وكما تسرب فيما بعد فإن فرانسوا قد قشرت لذلك كثيرا من الهليون في الصيف، ذلك لأن الخادمة الحامل قد أصيبت بنوبة ربو، إن فرانسوا الأمينة التي تنهدت عندما خبرت حظها العاثر في نهاية أخرى للعالم، كشفت عن جانب من طبيعتها على أنها خارقة ووحشية وماكرة.

إن هذا الجانب من الأنا هو الموضوع الرئيس للرواية، فلم يقدم بروست الأنا صدفة من خلال الخضروات الأكثر شيوعا، فلأجل هذا فإن الخادمة التي عانت من الهليون كانت حاملا أيضا، وليس عجيبا أن تجتمع في موتيف الهليون اللذة مع المرض والقسوة، كما هو الحال عند ابنة فينتويل التي ضبطها مارسيل متلبسة مع صديقتها من على بعد سنتيمترات.

يتبين لنا في كلتي الحالتين وجبة متعددة الألوان، وقد أغرانا بروست مظهرا تحفظا شديدا بالأسلوب الذي سيحل فيه عقدة الذنب واللذة.إن الهليون شعري كما هو عند شكسبير وصور كما صوره مانيه:لا يلتصق به شيء دنيوي. أدخل بروست الموسيقى عند فينتويل بوصفه فنا ثالثا.إن صديقة البنت الغانية سوف تحل عقد الأب وستنقذ مؤلفاته خدمة للأجيال القادمة، فالفن وحده هو الذي يكفر الذنوب، إنه التكفير العظيم – كما هي رواية بروست – التي كانت تكفيرا عظيما عن موت الأم.

Twitter: @ketab_n

لقد عانى ابنها طوال حياته من الشك والندم. لكن هناك استثناء جديرا بالملاحظة ولم يعرف إلا قليلا، فمؤلف البحث عن الزمن الضائع ما هو إلا حكم في لجنة جوائز، وقدم الحجة الآتية: إنه مؤلف أكثر سوءا من الآخرين، لكن شخصيته أفضل منهم، ولأجل هذا فقد كان صوته هادرا.

مرة أخرى بالغ بروست في هذا، حتى إنه لجأ إلى الكذب. ففي الجزء الأول من الجملة يعرف بروست تماما، أنه كان المؤلف الأحسن، هذا إذا لم يكن العظيم الذي عرفه فن الرواية.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

بروست، فرعون الزمن الضائع!

مرسيل بروست هو الأكثر شأنا من بين الكتّاب الذين سبق للناقد الأدبي المشهور ميشائيل مار أن كتب عنهم كتبا، فقد كتب عن توماس مان ونابوكوف دراسات تناول بها جوانب كانت حتى تلك اللحظة غامضة على النقد الأدبي والقارئ مما ميّز هذا الناقد الكبير عن غيره من النقّاد، خاصة وأنه تعمّق في تفاصيل السير الذاتية للكتّاب. وبالرغم من ذلك فإنه منح بروست حيّزاً أكبر في عمله واهتمامه، متقفيا آثار هذا الكاتب، شغوفا بنصوصه وحاملا له مودة خاصة.

ISBN 978-9948-01-429-4

cover by phxcom.com

JOHANNES GUTENBERG UNIVERSITÄT MAINZ

كلمة KALIMA

المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة